

روايات عبير



sarah

فتيوليت وينستبر

العروس الأسييرة



www.liilas.com/v63

Sarah

liilas.com

sarah

العروس الأسيرة

دائما يرتبط الحب بالجمال ، دائما يكون العاشق شبيها
بادونيس والعاشقة شقيقة عشثار . الا ان هذه القاعدة ، ككل
قاعدة لها شواذها ، ورافينا التي احبت رودري الجميل ما لبثت
ان وجدت نفسها حيال رجل محروق الوجه واليدين ، يطارده
ماضيه كالظل ، وفي ارجاء قصره المنيع في سردينيا وقعت اسيرة
ذلك الماضي وتلك «الجروق» ... فهل تبقى هناك وهل يطل الورد
من غابة الشوك ؟

www.liilas.com
Sarah

١ - مفاجأة في العرس

وضع العريس يده فوق يد العروس وراحت اليدان تقطعان
كعكة الزفاف بين هتافات التهنئة، ورلين الكؤوس، وجلجلة
ضحكات المدعوين.

سأل أحدهم العريس:

"حقا ما يتردد في وطنكم بأن الرجال يصفعون العروس في
يوم زفافها حتى تعرف من هو السيد؟"
ابتسم مارك دي كورزيو وقال:

"أنت تتكلم عن أهالي صقلية أما أنا فأحد أبناء سردينيا."
وبينما كان مارك يجيب على أسئلة تدور كلها حول
سردينيا، ناول أحد المدعوين العروس ظرفا صغيرا أصفر اللون
وقال لها:

"هذه الرسالة وصلت لتوها يا رافينا، أتوقع أن تحمل في
طياتها حظا سعيدا لك."

وشاب ابتسامتها شيء من التوتر، عندما قضت الرسالة
وراحت تقرأ فحواها، عندئذ ألقت نظرة سريعة على مارك،
وفي لمح البصر دستها في أحد قفاريها الحريريين، وغمر
الشحوب وجهها حتى بدت عيناها بلون الجواهر الخضراء.

وأخيرا حان وقت الصعود الى الطابق العلوي لارتداء ملابس
رحلة شهر العسل. اعتذرت من إحدى صديقاتها التي تقدمت
تبعي مساعدتها في تغيير ملابسها وقالت لها:

"أنا... أنا... أريد أن أنفرد بنفسي."

أسرعت تتخلص من ثوب الزفاف الذهبي الشاحب، والشال

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية

THE UNWILLING BRIDE

© Violet Winspear 1969.

© 1982 Harlequin (Cyprus) Ltd.

المراسلات:

Harlequin (Cyprus) Ltd.

29 Michalakopoulou St.

Athens T.T. 612, Greece.

حقوق التأليف لفيوليت وينسبير
جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس والترجمة محفوظة
لهارلكوين (قبرص) المحدودة

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

* مساء الخير يا ألسة بريتين *
وعندما انحنى لها انحناءة قصيرة، أحست بالتوتر الذي كانت تشعر به كلما قدم لتناول طعام الغداء في رافنهول.
كان شريكا في الأعمال التي يمارسها جاردي، ولكن هذه كانت المرة الأولى التي التقيا فيها على انفراد. كان يعيش في الخارج بمنأى عن الجميع، ويعتبر أكبر سنا من جميع أصدقائها، وتكتنفه هالة من الغموض.

كان معتدل القامة ومع ذلك يوحى بأنه شخص طيع عندما يهل عليها، وكانت أسنانها تركز على شفتها السفلى بقسوة كلما وقع بصرها على الجانب الأيسر من وجهه الذي لفحه سفير النار، وكانت تغض بصرها عنه بسرعة، وكأنها ترى في وجهه صورة الشيطان وقد اقترنت بها صورة الملاك.

قال لها وهو يضغط على مخارج الكلمات:
* أرحو أن تكوني متمتعة بصحة جيدة يا رافينا *
* أخشى ألا يكون باستطاعتك لقاء جاردي، فهو موجود الآن بالخارج *
قال:

* ما جئت إلا لرؤيتك *
نزلت كلماته كالصدمة المفاجئة، وتفحصت وجهه المتعالي الذي يوحى بأنه كان ذات يوم يتسم بالوسامة، أما الآن فتبدو الصرامة القاسية في ملامحه. واستطرد يقول:
* جئت عن قصد في هذه الساعة لأنني أعرف أن وصيك سوف يكون خارج المنزل. في هذا الأصيل يمارس لعبة البولنغ مع صديقه القديم في الجيش أيوين كيديو، أليس كذلك؟ *
* إنني لا أكاد أعرفك يا سنيور دي كورزيو ولا أظن أن هناك شيئا يمكننا أن نتبادل الحديث عنه *.

وواجهته بنظرات مستقيمة كاستقامة شعرها الأحمر الداكن، وثابتة كثبات عينيها الخضراوين.
قال وعلى شفثيه ابتسامة ملتوية:
* ستعرفيني جيدا خلال لحظات *
وأشار إلى مقعدين عميقين فوقهما وسادتان صغيرتان من الجلد. وقال:

المزين بشريط من شرائط ويلز. لم يستغرق التغيير وقتا طويلا، وعندما ارتدت ملابس الخروج وقفت أمام نافذة غرفتها، وتأملت شجرة الدردار التي ارتفعت وسط الحديقة، وحملها الحنين إلى الماضي فرأت رودري وهو يتسلق الشجرة ويقبع بين أغصانها. وكان يوما ما يبدو لها فارس أحلامها العفوار، وفي يوم آخر يلبسه الشيطان ويأخذ في مشاكستها. هكذا شبت هي ورودري سويا في ذلك البيت على حدود ويلز. كان الابن الوحيد للكولونيل كاروت بريتين (1)، الوصي عليها لعدة سنوات. وكثيرا ما كانت تعتبره في منزلة والدها، وتكن له أعظم الحب.

ومنذ ثمانية عشر شهرا استقال رودري من الجيش، ورحل إلى نيوسوث ويلز في استراليا ليستغل بالزراعة هناك. وكانت ضربة قاسية نزلت على رأس جاردي الذي يعتز كثيرا بالشهرة التي أحرزها في الخدمة العسكرية ولم تدهش رافينا مما أقدم عليه رودري الذي يعتبر سليل أسرة عسكرية وعريقة يواكب تاريخها تاريخ مقاطعة ويلز، وكان لزاما على رودري أن ينخرط مثل أبيه في السلك العسكري. وكانت رافينا تعرف أن رودري بريتين يتنازعه دائما القلق المسيطر على حياته تماما.

قبعدها تسلم وظيفته، اختار أن يقوم بمهمة خاصة في قبرص، وكانت كبرياء جاردي لا تعرف الحدود، إذ غضب عندما عرف أن ابنه سوف يمضي إجازته في الخارج، ولم يكذب يرحل رودري إلى قبرص حتى ترك الخدمة العسكرية.

راحت رافينا تتحقق عبر نافذة غرفة نومها، ويبدو أنها عادت تسمع مرة أخرى وقع حوافر حصان على الحصى الذي يكسو ساحة الحديقة، وذكرها الوقع بيوم كانت تقف في المكتبة حين سمعت وقع حوافر أعقبه وقع خطوات حذاء تعبر الشرفة التي تقع أمام نوافذ المكتبة، وتذكرت نوبة الفرع التي تملكبتها عندما رأت قوام مارك دي كورزيو يعتم زجاج النوافذ.

حذق كل منهما في الآخر عبر الزجاج، ثم دلف إلى المكتبة بلا دعوة، وقال لها:

"من فضلك دعينا نجلس، وإلا ظننت أنك تؤدين الفرار هنيئاً".
وتوترت أعصابها، وكان يحدوها حافز قوي يدعوها أن
تطلب منه مغادرة رافنهول في الحال، ولكنه إذ التقى بصره
بعينيها، أحست أنه يقرأ أفكارها. فقالت له بحزم:
"أستطيع أن أمنحك خمس دقائق. إنني أعد الطعام
و جاردي يحب أن يتناول عشاءه في موعده".
"من فضلك اجلسي يا سينيورينا".

امتثلت لطلبه وجلس هو بدوره، وتقاطعت ساقاه، وسقط
الضوء على حذائه الجلدي اللامع، وكان سرواله وسترته من
قماش التويد، وبدل مظهرهما على حسن حياكتهما، ولم يحمل
معه سوطاً، مما يدل دلالة كافية على أنه يتق بنفسه في قيادة
الخيول، والناس أيضاً، بلا سوط. وسألها:

"هل تسمحين لي بالتدخين؟"
فأومات بالإيجاب، وراقبته وهو يخرج سيكارا رفيعا
وقصيرا من علبة جلدية، أشعله بعود ثقاب، وكاد اللهب
يقرب من أنامله، قبل أن يلقي بالعود إلى المدفأة التي كانت
خاوية، لأن فصل الصيف بدأ يزحف تدريجيا ويغزو الطقس
البريطاني.

"أشعر دائما بالبرد عندهما أجيء إلى انكلترا، فالشمس تشرق
نادرا، نسبة إليها في بلدي".
"حقا يا سينيورا".

ونظرت إليه بأدب، دون أن تحدوها أدنى رغبة في أن
تسأله من أين أتى، وكانت تتمنى أن يقضي بها لديه ثم
يرحل، فقد أرعجها قدومه. وقطع عليها وحدتها، وتمنت أن
يرحل بأسرع ما يمكن.
قال:

"مهلا يا سينيورينا، وتمالكي زمام أمرك، وأسألي نفسك لماذا
قطعت عليك خلوتك في عقر دارك؟"
قالت بصوت بارد:

"نحن غريبان وليس بيننا شيء مهم، ولكن يبدو لي أنك تريد
أن أصغي اليك".
قال:

"جئت أروي لك حكاية يا أنسة بريتين".
"أنا منصتة لك يا سنيور". من فضلك ابدأ قصتك".
"أنا أرمل، زوجتي الصغيرة دونانا ماتت بعدما ولدت ابنتنا،
فكرت كل حبي لابني الصغير دريستي. كان طفلا نشيطا،
محبا، حنوناً، ومنذ ثمانية عشر شهرا دهم سائق مخمور
سيارتي حيث كان ينام دريستي في المقعد المجاور لي،
وولى هاربا، وترك سيارتي مقلوبة على ظهرها، والنيران
مشتعلة فيها".

وضعت رافينا يدها على خدها، وكأنها تتلقى صدمة عندما
وقع بصرها على الندبة التي خلفتها النار على وجه مارك،
وواصل حديثه بخشونة:

"وقعت أنا وابني في شرك داخل السيارة، وبذلت جهودا
مجنونة لكي أحطم النوافذ لأحمل ابني بعيدا عنها ولكن... يا
إلهي لو أن المجرم توقف وساعدني، لكان في وسع ابني أن
يعيش حتى اليوم".

ولم تستطع رافينا أن تتحمل التفكير في أن الطفل يموت
بهذه الطريقة فقالت:
"أوه... لا".

واستطرد مارك يقول:
"انفجر خزان البنزين، وتطاير جسدي وهو يحترق ليسقط في
حقل مجاور. فأسرع العمال لإطفاء النيران. كانوا يعملون على
مبعدة، ولم يكن في وسعهم الوصول إلى العربة قبل
انفجارها. كان السائق الطائش وحده هو الذي يستطيع أن
يقدم لنا المساعدة. وأمضيت عدة أشهر في المستشفى،
بعدها رحت أقتفي أثر الرجل، وعن طريق الكراج الذي أجرى
الإصلاحات لسيارته عرفت أن اسمه رودري بريتين، الضابط
في الجيش البريطاني، والمؤقد في مهمة خاصة إلى قبرص".
وتألفت عينا مارك دي كورزيو بتأنيب مرير عندما
استقرتا على وجه رافينا، ثم كساهما بياض أشاع الشلل في
شفثها.
قال:

"ابن وصيك، تسبب في موت ابني".

وكانت كلماته تملأ الغرفة ويشوبها الألم والغضب، ثم استطرد يقول:

"دريستي كان في الرابعة من عمره، وهو آخر هدية حب قدمتها زوجتي لي. ابني كان وريثي في أرضي، وعقاري، وكان سيحمل اسمي من بعدي، وموضع التشريف من أهالي سردينيا لعدة سنوات. إن كلمة الشرف لها معناها لدى أهالي الجزيرة، وأعتقد أيضا أنها تعني شيئا لرجال من أمثال كولونيل كاروت برينين."

صاحت قائلة:

"جاردي؟ أنت تقصد أن تخبره بأن رودري كان مخمورا وهو يقود سيارته وأنه تسبب في الاصطدام بسيارتك؟ لا تستطيع أن تفعل ذلك!"

ونهضت واقفة على قدميها، ثم أردفت قائلة:

"سوف تقتله!"

ونهض مارك واقفا بدوره وقال:

"من تقاليد بلدي، أن أسرة الأثم لابد أن تدفع عوضا عن الخزي والعار، وطمنا عن الأضرار التي لحقت بالمجني عليه. إننا نؤمن بأن أسرة الرجل الذي اقترف خطأ عليها أن تتلقى اللوم بصورة ما."

قالت:

"ولكننا نعيش في انكلترا."

لم تكن رافينا تؤمن بأن أي رجل مهما أودى في قلبه أو جسده يمكن أن يوجه اللوم إلى جندي عجوز قديم بسبب خطأ ارتكبه ابنه. وأردفت تقول:

"إننا... إننا نحاول أن نغفر... يا سنيور. إننا لا نسأل أحدا أن يدفع تمنا لخطأ ارتكبه."

"أنا من سردينيا، وقد مكنت ثمانية عشر شهرا أسأل نفسي، ما هو الثمن الذي يمكن لأحد أفراد أسرة هذا المنزل أن يدفعه، واليوم وجدت الجواب على سؤالي."

"أنت تهدف إلى إيذاء جاردي."

"ليس هذا ضروريا يا أنسة برينين."

"ولكنك أشرت..."

وحدقت في الرجل وتعلقت بالأمل، لكنها اصطدمت بنظراته العنيدة السوداء، إذ أنه من سلالة رجال يتصفون بالكبرياء والعاطفة والجسارة.

قال مارك دي كورزيو عن عمد:

"جاردي في غنى عن معرفة أن ابنه شخص جبان..."

"كيف؟"

ودقت الساعة لتعلن عن سكون معذب، وهي تنتظر منه أن يواصل حديثه، ولكنه كان هادئا، مما دفعها إلى أن تراه في صورة النمر المتحفر للانقراض على فريسته. كان الصمت الذي ران عليهما يحمل في طياته إنذارا بالهجوم. قال بهدوء:

"سوف تتزوجين مني، وستهيبن لي ولدا، بدلا من الولد الذي فقدته."

ولم تصدق رافينا أذنيها، وانعقد لسانها فلم تتكلم، ولكن الكلمات تدفقت فجأة:

"لا يمكن أن تكون جادا..."

"لم أكن أكثر جدية كما هو الحال في هذه المرة..."

"هذا جنون! لا أستطيع الزواج منك..."

قال وابتسامة ملتوية ترسم على شفتيه:

"أنت تظنين أنك لا تستطيعين الزواج مني. إن الحب وحده"

سوف يجبرك على الاقتراح بي..."

قالت متسائلة:

"الحب؟"

وشعرت بتقيار بارد يسري في جسمها وعندما تحركت كانت تنشد الهروب من نظراته، ومن نديته، ومن عينيه وحاجبيه السوداوين، ولكنه تقدم نحوها يعترض طريقها، وتحت وطأة الخوف استخدمت سلاح الاحتقار وهي تقول له:

"هل تتصور أنني أستطيع أن أحبك؟"

قال ساخرا:

"لا... إن خيالي ليس بهذه القوة، ولكنك تحبين جاردي، ولن تقبلي إيذائه أو أن تكوني سببا في حرمانه من الحب الذي يكرهه لابنه..."

"أنت قاس ياسنيور دي كورزيو..."

"لم أعتد أن أكون قاسيا يا سينيورينا، ولكن رجلا اسمه رودري برينين جعلني أكون قاسيا".
وحدثت عيناه السوداوان في عينيها، تشع منهما القسوة، وعدم الرحمة، وحدثها قلبها بأن بيت برينين سيدفع الثمن لقاء الطريقة الأليمة التي فقد بها مارك ابنه الصغير.

حاولت رافينا أن تتحدث إليه بتعقل مع أن نبضات قلبها كانت مضطربة، فقالت له:

"ما الذي تجنيه مني يا سنيور لو أنك تزوجت امرأة لا تحبك؟ وماذا يحدث لو أنني أخبرتك بأنني أحب رجلا آخر؟"
"هل تحبين رجلا آخر؟"

قالت بتحد:

"أن أحب رجلا آخر، هذا شأني".

ونفض رعاد سيكاره في المدفأة وقال:

"على العكس، باعتبارك زوجتي، من واجبك أن تنسي هذا الرجل الآخر".

"هل تعني أنك تجبرني على الزواج منك؟"

وأحست فجأة بالاضطراب، والحيرة، ولم تستطع أن تخفي شعورها فبدأ جليا في نظراتها الخضراء.

قال مارك:

"خلال الأسابيع القليلة الماضية عرفت شيئا عنك يا آنسة برينين، وخاصة عن مدى حبك الشديد للكولونيل جاردري الذي يعد أبا بالنسبة اليك، والحب يعتبر شيئا جميلا أقدره في المرأة، خاصة أنني من أهالي سردينيا، ولكنني أفضل أن يحل الولاء مكان الحب".

فصاحت قائلة:

"جئت وأنت مستعد لأن تطأ بقدمك عنق أحدهم، وأنه حان الوقت لأخضع لك لأنك تعرف أن جاردري تعرض لنوبة قلبية منذ فترة قصيرة وأن نوبة أخرى قد تؤدي بحياته".

"بل تبين لي أن وصيك يعتبر شخصية جذابة، وصريحة، ولبقة في الحديث، وسيكون من الألم أن يبدد مشاعر أبوتك على ابن لا يهتم بالجاذبية".

أحست رافينا أنها تنزع الشفقة من قلبها نحو صاحب الوجه المشوه، في الوقت الذي تشعر فيه بالألم نحو الطفل الذي مات في الحريق. قالت:

"إنك تزيد الموقف مرارة".

"هكذا نبني أحلامنا. فمن المؤسف أن أحطم أحلامك لأبني فوقها أحلامي".

وضاقت جفونته وهو يتطلع إليها، وتوترت بشرته السوداء فوق فكيه وهو يستطرد قائلا:

"ستكون هناك تعويضات... يا رافينا".

شعرت بأصابع صارمة تطبق حول راسها، ففتحت عينيها لتجد مارك دي كورزيو قد اقترب منها، وشعرت بالكآبة عندما التقى بصرها بعينه، وأجفلت من ندبته، ورأت النيران تتصاعد من خياشيمه والرغبة الشديدة تتراقص على فمه، وكانت رافينا قد عاشت حياتها لا تشعر بأي خوف، تتمتع بالمراوغة التي تسحر بعضهم وتشيع الاضطراب عند البعض الآخر، ولكنها الآن تقع تحت رحمة حبها لوصيها جاردري، وهي عزلاء من أي سلاح.

قال:

"سأطلب من الكولونيل برينين الموافقة على زواجي منك، وأنت بدورك تزعمين أنك ترغبين في هذا الزواج كما أريد فيه أنا".

وأحس رأسه وقيل يدها الباردة المضطربة، وأحست بأطرافها تجمدت عندها سمعته يتمتم:

"أنت ترتدين سراويل تشبه سراويل صبي، ويجب أن تفهمي أنني أريدك امرأة".

وتحول عنها، وتناول وردة من الزهرية الموضوعة على المنضدة وثبتها في غرورة سترته، وقال لها:

"أراك مثل الزهور، وفي سردينيا تنمو الزهور فوق القلال قبل أن تشتد حرارة الشمس، وبيتي يقع فوق ربوة كبيرة من الصخر على بعدة من البحر".

"هل تحبين البحر يا سينيورينا؟"

أجابته بحركة آلية:

عشت هنا معظم حياتي، أحب القرية التي تحيط برافنهول،
إنني أنتمي إليها..

آه، ولكن عندما تتزوج امرأة، فأنها تتوقع أن تترك وراءها
بيتها لتضم إلى زوجها، أما بالنسبة إلى الرجل الآخر الذي
تحدثت عنه فهل يعيش في هذه الناحية؟
قالت مغمضة العينين:

"أجل، لا تتوقع مني أن أتخلي عن كل ما أحب. أرجوك يا
سينور.."

وعندئذ تطلعت إليه، ورأت أنه لن يتأثر بكلامها، ولم يكن
من طبيعتها التذلل والتوسل، فابتلعت توسلها وتعلقت
بكبرياتها، وقالت:

"إذا أجبرتني على أن أفعل ذلك، فإنني أعدك بأن أكرهك
بكل قطرة من الدم السلتي (٢) الذي يجري في عروقي.."
قال مبتسماً:

"وأنا أيضاً يجري في عروقي دم سلتي يا رافينا. كانت
جدتي تنتمي إلى شعب كورنوول، ولهذا السبب
دعيت مارك. هل تعرفين أسطورة مارك الذي كان ملكاً
على كورنوول؟"

حدقت رافينا في عينيه وقالت:

"طبعاً أعرفها. زوجته أحببت الفارس الذي أتى بها من
أيرلندا، وفضلته على أن تكون عروسا للرجل الذي لا يستطيع
أن تحبه.."

وألقى نظرة سريعة على النوافذ التي اسودت بالسحب
المنذرة بهطول المطر، أو هبوب عاصفة الصيف. قال:

"الحب معان كثيرة يا سينيورينا. إن الرجال في صقلية
يصنعون وجه عروسهم في يوم زفافها، أما نحن رجال
سردينيا فنُدخِر هذه الصفة للمناسبة التي تستحقها. والآن
أظن أن الوقت حان للعودة إلى الفندق حيث أقيم، إنه فندق
"الذئب والحمل" في هذه القرية العتيقة، وبالقرب منه تقع
اصطبلات الخيل، ولكوني أحد أبناء سردينيا فقد ولدت على
ظهر جواد.."

رافقته حتى اجتاز ساحة الحديقة إلى المكان حيث ترك

الجواد، وكان جواداً أسود اللون.

واعطى مارك ظهر الجواد بحنكة دلت على أنه رجل
خبير بركوب الخيل، ثم قال لها:

"أرجو أن تسأل الكولونيل برينين أن يتيح لي فرصة
رؤيته ظهر الغد. إن من دواعي التقاليد الرسمية أن يسأل
المرء والد الفتاة أو وصيها موافقته على زواج ابنته.
ستكونين أنت موجودة هنا أيضاً لتضعي خاتم الزفاف في
أصبعك.."

زمنجرت العاصفة، واندفع الجواد بفارسه تجاه ضوء الفسق،
ورفع الفارس يده ملوحاً وهو يقول "وداعاً". وأثارت حوافر
الجواد سكون العاصفة كما أثار الفارس ضربات قلبها.

انتابها احساس بالقدر الذي أنشأ أظافره في قلبها. فقد
رأت أنها لا تستطيع أن تخبر جاردي بما فعله
ابنه بمارك دي كورزيو. أنها لا تستطيع إبداءه، أو أن
يتعرض لأحدى التوبيات القلبية مرة ثانية لأن الطبيب قال:
"إن جاردي يشعر بقلق على ابنه رودري. أطفالنا هم
الحب والهلاك الذي يدمر حياتنا.."

وفكرت رافينا في ابن مارك وأحست ببرودة تمسك
بتلابيب عظامها، فإن المينة الرهيبة التي لقي بها الطفل
مصرعه نغصت حياة أبيه لدرجة أنه لم يعد يحس بأي شعور
بالرحمة، على الأقل نحو أفراد عائلة برينين.

لا بد أن يدفع برينين الثمن. واختيرت هي بالذات لأنها
وحدها تستطيع أن تقدمه له، وهذا الثمن هو طفل آخر...
ابن آخر.

تراجعت رافينا عن النافذة، وسارت إلى منضدة الزينة،
ووقفت أمامها في ثوبها الأخضر، يهزها التوتر، وراحت تقرأ
مرة ثانية البرقية التي تسلمتها في غرفة الاستقبال على أنها
برقية تهنئة للعروس، ولكن البرقية كانت في الواقع موجهة
إلى وصيها. فضتها وقرأت:

"الابن الضال يعود يا أبي. أصل بقطار الثالثة والنصف. الحب
لك و لرافينا.."

رودري في طريقه إلى البيت. وسحقت رافينا البرقية

في قبضة يدها، ورأت أن من واجبها أن تلتقي به قبل أن يصل إلى البيت الذي تستعد لمغادرته هي و مارك لقضاء شهر العسل. وعليها أن تحذره ألا يبوح بسر، كما احتفظت به مطويا عن جاردي. عزيزي جاردي الذي قدم سيفه إلى مارك لكي يقطع كعكة الزفاف. وابتمت عندما مر بخيالها أنها ما تزوجت مارك دي كوزيو إلا لتنفذ رودري.

سيعرف رودري أن الصبي الذي قتله بتهوره واستهتاره هو ابن مارك، كما أن وصول رودري لم يكن متوقعا من أحد، وقد يقضي بالحقيقة لأبيه.

انترعت رافينا حقيبة يدها، وتسللت من غرفتها، وتناهدت إليها أصوات الضحكات الصادرة من الردهة، ومثل الشبح اتخذت سبيلها عبر طريق السلم الضيق الذي يقع عند نهاية الدهليز، وقادها إلى باب جانبي، وفي استعجالها نسيت غضب زوجها عندما يكتشف اختفاء عروسه المفاجيء. وعندما بلغت ساحة الحديقة كان الجو مشبعاً بصباب خفيف ينذر بالمطر. لم يرها أحد حينما دلفت بسرعة إلى الكراج، لتستقل سيارتها وتقودها إلى الطريق، حتى بلغت ساحة محطة السكك الحديدية، التي وجدت فيها مهجورة، كما خيم صمت مطبق على المكان، عندما سارت على الرصيف بدا القطار على مرمى البصر، وهو يسعى عند إحدى المنحنيات حتى بلغ المحطة الصغيرة، وملأها بضجيج، وانفتحت الأبواب، وهرولت الأقدام تغادر القطار، وظلت رافينا ساكنة في مكانها حتى أقبل عليها شاب نحيل القامة، أسمر اللون، يحمل في يده حقيبة سفر من القماش، ويرتدي سترة جلدية فوق كنزة أحكمت فتحتها عند عنقه لتقيه برودة المطر.

وضع رودري الحقيبة على الرصيف، وحدق في وجهها مدة طويلة، ثم قال ضاحكا:

"رافينا، لقد كبرت. أصبحت كائنا كاملا، ساحرة صغيرة، خضراء العينين."

مكثت رافينا صامتة ولم تعرف ما تفعله سوى التطلع

إليه. وما هو يعود بعد افتراق استغرق عدة شهور، ولم تستطع أن تصدق أن هذا الوجه المألوف لديها، وهذا الصوت الذي تعرفه، يخصان شخصا متهورا ومحمورا وهو يقود سيارته.

وقف بعيدا عنها، فالأفضل له أن يتأملها من بعيد. وتفحصها مليا ببصره، وتأمل ثوبها الأخضر، ثم قال لها:

"تبدو عليك الأناقة... أين أبي؟"

"رو دري، تعال معي إلى السيارة، لا بد أن أتحدث اليك." واصطبغت عيناها بالقلق وسألها:

"هل أبي بخير؟ هل هو مريض ثانية؟"

وهزت رأسها بالنفي قائلة:

"لا، إنه أحسن حالا مما كان عليه في الأيام الماضية. إنه يعمل بعض الوقت في وظيفة بإحدى الشركات، في منصب إداري، كما أنه عضو في المجلس المحلي، وأنت يا رودري تبدو عليك الصحة."

لم تلاحظ رافينا عليه أية دلالة على أنه يكابد أي شعور من تأنيب الضمير، ومن الجلي أن مدة ثمانية عشر شهرا قضاهما في استراليا ساعدته على أن تنحو من ذاكرته ما حدث في سردينيا.

التقط حقيبتها، والتفت ذراعه حول وسطها وراح يقودها إلى السيارة، وقال لها:

"أشعر بأنني لائق صحيا، أما أنت فيبدو على وجهك الشحوب. لم تعد عيناك تضحكان كعهدي بهما، هناك شيء خطأ، اليس كذلك؟"

ولم تجب على تساؤله، ودلف إلى السيارة، وجلست وراء عجلة القيادة، وعندما أمسكت بها شعرت به يحملق في يدها اليسرى، ورأى خاتم الزواج وإلى جواره خاتم آخر من الزمرد الخالص، يتألقان في أصبعها، وفجأة قال:

"رافينا!!"

واستدارت نحوه تقابل عينيها المصدومتين قائلة:

"أرسلت لك برقية أخبرك فيها بزواجي، ولم يكن لدينا أدنى

فكرة أنك في طريقك الى الوطن.

تزوجت؟

هيا بنا، وفي الطريق سوف أخبرك بكل شيء.

كان المطر أشبه بالضباب يكتنف الهواء، وهي تقود السيارة خلال دروب المدينة الهادئة، وأخبرته بكل شيء، في صوت هاديء غير عاطفي. وجلس إلى جوارها مشدوها، أشعل لغافة تبغ، وسحب نفسين، ثم سحقها وألقى بها خارجاً، وكأنه يكابد حرارة الصدمة. قال لها:

لا يمكنك احتمال الأمر. سأخبر أبي بكل شيء.

قالت ببرود:

وتقتله؟ ألا تظن أنك ارتكبت ما فيه الكفاية؟ مات طفل صغير.

وكسا وجهه قناع من الألم والأسف المرير، وهو يقول:
"رافينا! أنا... ظننت أنه يمكن نسيان كل شيء، إنتي أخطو على درب الجبن مرة أخرى."

كل ما تفعله هو عدم إيذاء جاردي. هل تسمعي يا رودري؟

ولكن ما هو الثمن يا رافينا؟

زواجي.

وأوقفت السيارة عند منحني هاديء، والتفتت تتطلع إليه وأردفت تقول:

سأعتاد العيش في أرض غريبة.

مع رجل لا تحبينه؟

هل قلت إنني لا أحبه.

أنا أعرفك جيداً يا رافينا، عيناك لا تجمدان بل تبعثان الدفء ما دمت سعيدة، كانتا تتألقان يا رافينا في الأيام الخوالي.

قاطعتها قائلة:

لا داعي للحديث عن الأيام الخوالي، لن تخبر جاردي بأي شيء عما حدث في سردينيا. انتهى الأمر، ولن يعود الصبي الصغير إلى الحياة.

أنت فتاة صغيرة حمقاء يا رافينا! هذا الزواج يجب أن

يفسخ قبل أن يبلغ مداه. يا الهي، هل تظنين أنني أدعك تعيشين مع رجل أجبرك على الزواج منه؟ هل تعتقدين أن أبي سوف يتخلى عنك لو عرف الحقيقة؟

قالت:

يجب ألا يعرف يا رودري! أن قلبه لن يتحمل الموقف. اسأل دكتور شاني.

سألها وقد لاح وجهه في عينيها وكان السنين تقدمت به:
"بهذه الدرجة من سوء؟"

سألته:

"هل تعتقد أنك تستطيع الاغلات من دون أن تنال عقابك؟ مارك دي كورزيو يكابد ندوبه على وجهه وفي أغوار نفسه. هل تسمعي يا رودري؟ إنه يكابد ندوبه. عندئذ انهار رودري برينين، وبدأ ينتحب كالطفل الصغير، فربتت على شعره الأسود، وحاولت تهدئته. وتملمت قائلة:

"يجب أن تمكث في فندق القرية حتى الغد. أنت لا تستطيع أن تقابل جاردي في هذه الحالة، ومن الأفضل أن تتوجه إلى البيت بعد أن أرحل أنا و مارك إلى سردينيا. هل تفهمني؟"

هز رأسه، وعندما استعاد رباطة جأشه ثانية، أدارت المحرك، وقادت السيارة في اتجاه الفندق، ولكنها لم تجرؤ أن تترك رودري وحده، كان اليأس مسيطراً عليه، وفي أمس الحاجة إليها، فمكثت معه في ردهة فندق "الذئب والحمل"، وراحت تجاذبه أطراف الحديث.

قال رودري صاحب الوجه:

"رافينا، سيقنك عندما تعودين إليه."

وتطلعت إلى الساعة المعلقة على الحائط، وشعرت بأصابع باردة تعصر قلبها، ولأول مرة فكرت في مارك وفي غضبه.

قالت:

أجل، يجب أن أعود، يجب أن تعذني يا رودري بأنك لن تقضي بشيء لأبيك. سيكون الأمر فوق طاقتة.

وثبت عينيه على وجهها وقال:

"وماذا عنك أنت؟"

وقفت على قدميها، وتناولت حقيبة يدها وشاحها، وقالت:
"سأكون بخير، كما يقول لي كل واحد اليوم، مارك ثري
وصاحب قري وله مكانة مرموقة في سردينيا، وسوف أصبح
سيدة بيته."

وزمجر رودري قائلا:

"كان هذا كله هو ما يهيك. أنت الفتاة التي أعرفها جيدا.
أنت أبعد عن كل أنانية."

قالت ضاحكة:

"لا تجعلني أبدى في صورة وعلى فكرة جونيت
كيريو ما زالت عذراء، وفاتنة كأغنية ويلز، تذكر كيف كنت
دائما ميلا إليها، جاءت اليوم لتشهد حفل زفافني، وأشارت
قائلة ليس من العار ألا يشهد رودري زفافك."

وعندئذ هزعت رافينا تبعد عنه وعن الردهة وعن
الفندق لترتمي في أحضان الليل والمطر، قادت سيارتها عائدة
إلى رافنهورل، عيناها الخضراوان متجهمتان كحجر الزمرد
الذي يزين خاتمها، وحدثت نفسها بأن هي وسعها أن تتدخل
أي شيء الآن، حتى غضب مارك.

دخلت المنزل لتجده خائبا من المدعوين، ولم يبق شيء
سوى الزهور مدلاة في مزهرياتها وقد تناثرت تيلاتها على
أرضية القاعة، وعندما أغلقت الباب الأمامي وقع بصرها على
شيخ طويل يقف وسط الصالة الخافتة الضوء،
وسعى مارك أتيا من المكتبة، وشعرت بوخزة من الخوف
تسري في أعماقها، وهو يتقدم نحوها، في سترته السوداء،
سألها غاضبا وهو يهز كتفيها بيديه:

"أين كنت؟"

فلبت صامتة وعندما اشتدت قبضة أصابعه على كتفيها،

لم تلح له الفرصة لكي يدرك خذافيتها، وكان الهدوء الذي
تكلم به أشبه بلسع السياط تنزل فوق جلدها، وبعد هذا الصمت
قال:

"هيا، أخبريني أين كنت؟ ستفسرين لي سبب غيابك، وسوف
تنتحلين كذبة، كان علينا أن نخبر المدعوين بأن وعكة ألمت
بك، وأن رحيلنا إلى المطار قد تأجل، إنني أكره الخديعة
يا رافينا."

"هل حقا تكره الخديعة يا مارك؟"

تطلعت إليه، وتساءلت: "أي اسم آخر يمكن أن يطلق
الناس على زواجهما؟" وأردفت تقول:

"لا شك أنك سمعت عن الاضطرابات العصبية التي تعترى
العروس في ليلة زفافها، سيطرت بعضها على نفسي، ووجدت
أنه من الخير لي أن أنطلق بنفسي خارجا لفترة وجيزة،
طوى طرف كم سترته، وتطلع إلى ساعة يده، وقال:

"لكنك أمضيت عدة ساعات، ومن حقني أن أعرف أين أمضيت
هذه الفترة؟"

قالت:

"كنت أقوم بجولة في سيارتي."

كان ما تقوله نصف الحقيقة، ولكنها لم تستطع أن تواجه
نظرات عينيه وراحت تتطلع إلى باب المكتبة المفتوح،
وسأله:

"أين جازدي؟"

"أخذت إلى النوم وهو جالس في مقعده متوتر الأعصاب قلقا
عليك."

ومست هذه الكلمات عصبا حساسا عندها، وعندما شرعت
السير تجاه المكتبة، أمسك مارك برسفها، وجذبها ثانية
وأوقفها في هواجهته وسألها:

"هل أمضيت كل هذا الوقت مع رجل؟"

كان من المحتمل أن يحدث جزءا من الحقيقة، ولكنها لا
تستطيع أن تخبره بالباقي، إنها لا تقوى على أن تفضي له
بعودة رودري إلى انكلترا، وأنها اصططحته في سيارتها،
سوف يدرك أن قاتل ابنه هو الرجل الذي تحب، وأنها تورطت
في زواج لا يقوم على الحب من أجل حمايته.

انتابها شعور من اليأس البارد بعث الشجاعة في أعماقها
لأن تتخذه فقالت له:

"هل أن الآوان يا زوجي لأن تصفع عروسك؟ هل رأيت أنه من
المذلة أن تختفي عروسك في ليلة زفافها، وأنها لا تمتثل
بالخضوع لك حتى يبدأ شهر العسل؟"

حلق في وجهها، وشعرت بقبضة أصابعه تهتم عظامها.
وسألها مقابرا:

"كم يلزمك من الوقت حتى تعرفيني حق المعرفة؟ هل
تتصورين حقا أن ما أحبه في المرأة هو الخضوع فقط وليس
شيئا آخر؟"

"بيدو أنك قدمت أعذارا واهية للمدعوين عن غياب عروسك،
وهذا ما دعاهم إلى الدهشة."

"أتوقع أن دهشتهم منا ستلازمهم لعدة أسابيع مقبلة،
وسيتوهمون يا رافينا أنك ما تزوجت مني إلا من أجل
مال، وأين أجد المرأة التي يمكن أن تحب وجهها مثل
وجهي؟"

التوت شفته بابتسامة شاحبة، وأمسك بذراعها الأخرى،
ومال عليها، ولكنها جاهدت لكي تبتعد عن وجهه المشوه
بالندبة. ولا بد أنه قرأ في عينيها ما يخالجه، فقد كانت لا
تحس بأية رقة في لمسته وهو يميلها فوق ذراعه حتى بدا
شعرها وكأنه جناح من اللهب يجابه نسيم كفه الداكن.
تمتم قائلا:

"انظري مليا في وجهي. يجب أن تعتادي عليه، لأنني لا أريد
أن يكون زواجنا مجرد ظل."

تركها وسار بعيدا عنها تجاه السلم حيث استدار ينظر إليها،
وقال:

"تمضي الليلة في رافنهول، وترحل غدا."

وصمت قليلا ثم انفجر ضاحكا، وبهدوء قال ساخرا:
"لا حاجة بك إلى إغرائني بعينيك. إن شهر العسل سوف يبدأ
في سردينيا وليس هنا."

وتراخت أصابع يدها في بطة عندما غاصت فحوى كلماته
في عقلها المتعب. وقالت:

"أنت تقصد..."

قال:

"سنطير غدا جنوبا. الليلة ستقفين صامدة على قدميك، فأنا
لست شيطانا كما أبدو لك."

ولاح الاجهاد والدموع في عينيها وهي تتطلع إليه. لو أن
لديها الشجاعة لأن تفضي له بأنها كانت بصحية رودري،
ولكنها كانت تخشى ثورة غضبه، كما أنها لا تثق في رحمته.
وأخبرا قالت له:

"أنا... أنا... يجب أن أذهب إلى جاردري."

الأن أنها لم تكذب تبلغ باب المكتبة حتى استدارت لتلقي
نظرة أخرى على مارك. وعندما أسرع بالدخول إلى
المكتبة، شمل وصيها في مقعده وفتح عينيها، وابتسم قائلا:
"عزيزتي."

وفتح ذراعيه لاستقبالها، واندفعت نحوه كالطفل، الذي
يبحث عن الطمأنينة وألقت بنفسها على صدره، وتمتم قائلا:
"مارك كان غاضبا، لا تهربي ثانية يا عزيزتي. أنت امرأة
متزوجة الآن. أنت تعرفين ذلك."

وضغطت وجهتها على كتفه وقالت:

"أجل، يا جاردري."

"كنت دائما فتاة ذات بصيرة نافذة. أليس كذلك؟ هل أنت
متأكدة من أنك سعيدة مع هذا الرجل؟"

وأدركت نبرة الحرص والشك في صوت جاردري، وهي
الحال رأت أنه من الضروري أن تبعت الطمأنينة في نفسه:

"وأي شيء آخر تنشده الفتاة عندما تتزوج من رجل؟"

وابتسمت ابتسامة عريضة في وجه الذي تحبه وتحترمه
كثيرا. ثم قبلته في وجنته. وحدثت نفسها بأن غدا
سيعود رودري إلى البيت وإلى أبيه، وسيكون في ذلك
عزاؤه عندما يجتمع شملهما.

تساءلت هل يمكنها أن تحب هذا المكان النائي الذي يقع بعيدا عن وطنها وعن جاردي الذي استأجر مديرة بيت لترعى شؤونها *

ذلت رافينا جهدها لكي تقاوم حنينها إلى الوطن الذي راح يورق مضجعا وتطلعت إلى يد مارك وهو يدير عجلة القيادة، ثم نقلت بصرها إلى آثار الدوب التي انحطرت غائرة في جلد الأسر *

وكان مارك يركز انتباهه على الطريق عندما قال: "لا بد أنك تشعرين الآن بالاعياء، ولكن بعد ميل أو أكثر ستلوح لك كازاتشيريستو، وستشاهدين أشجار السرو التي تعلو في كبد السماء كالصاعل وسط الأمطار، ومن المحتمل جدا أن يصفو الجو غدا وتشرق الشمس وتحت الكازا تقع بساتين الليمون التي تقترب من البحر، والكروم المزروعة على جوانب القل *

سألته بأدب:

"هل تمتلك حصة من الأرض؟"

وشعرت أنه يتنسم باستياء، وأجاب:

"مساحة جيدة، أنا معروف هنا باسم بارون الأرض، والفلاحون الذين يعملون في أراضيهم أحفاد الفلاحين الذين عملوا عبر السنين مع أجدادي، الأحداث لا تتغير سريعا في سردينيا لأن أسلوب حياتنا ما هو إلا صورة مستمرة للماضي."

قالت وأصابها انعقدت على حقيقة يدها، وتشبثت بالجلد:

"أنت تقصد النظام الاقطاعي وأنت نموذج للاقطاعيين، كلمتك هي القانون في هذه الجبال، والناس يخشون هوماتهم إجلالا لك."

قال:

"لا ينحني أي سرديني لأحد، أنا أحمل اللقب فقط، ولكنني لا أحصل على حصة من إنتاج الأرض أكثر مما يحصل الأشخاص الذين يفلحونها."

"وأنت لك العمل، اليس كذلك؟ أم أن زوجتك وحدها سوف تستخلص العمل لك؟"

٢- من يجرح الحجر؟

الدروب عبر الجبل ضيقة، ملتوية حول نفسها، وبدت السيارة وكأنها تحيد عن مسارها، لتستقر في أعماق البحر. وكانت الرياح تلطم زجاجها مما أضاف مزيدا من الاحساس بخطر داهم، خاصة أن قيادة سيارة على حافة أرض غريبة، ومتجهة إلى غاية مجهولة، كان في نظر رافينا ضربا من الخيال *

جلست رافينا صامتة في المقعد المجاور قرب زوجها، وأغضت عينيها حتى لا ترى المنحنيات التي تغلوي عبر الطريق، ويبدو أن عاصفة الصيف اقتفت أثرهما منذ غادرا بريطانيا، وظلت ملازمة لهما طوال الطريق *

قال مارك بعد مضي ساعة من الصمت:

"أسف أن صورة الجزيرة التي أفسدتها مياه الأمطار هي أول منظر يقع عليه بصرك."

وفتحت رافينا عينيها فوقع بصرها على الصورة الجانبية لوجه التي حدد معالمها ضوء العاصفة، فشاهدت ألبسة النار وقد تركت بصماتها على صفحته، وبعد صمت وجيز استطرده يقول:

"يعتبر كاستل ديل توري واحدا من أجمل معالم سردينيا عندما تلقي الشمس بأشعتها عليه، ويعبق الهواء برائحة الليمون."

كان يتحدث إليها كواحد من ممثلي شركات السياحة، وهو يحاول أن يقنعه بأنها بحاجة إلى الشمس فقط لكي تعشق

ألقى حارك نظرة سريعة عليها وسألها:

* عم تتحدثين؟ *

* في الأيام الغائبة كان الاقطاعيون في مقاطعة ويلز يفوزون بنصيب الأسد في كل شيء، ويستخلصون العسل للحاكم، ويقومون بتقديمه له في قصره الذهبي. *

* إذن سوف تستخلصين العسل يا رافينا لتقديمه قربانا لسيد قصر السرو. *

قالت ضاحكة:

* أجل يا مارك، سأقدم ثيابي وشعري كما يفعل أي عضو ساينتي، فإنني لا أملك سواهما. *

* سيدايك أهلي باسم بادروتشينا، أي السيدة الصغيرة. *

وأشاحت ببصرها عنه، وتطلعت زائفة البصر عبر النافذة المجاورة لها، وراح يتحدث إليها وهو يعتقد أن عروسه سعيدة، وفي لهفة إلى رؤية بيتها الجديد.

ويبدو أنه كان لا يأبه كثيرا أنها ستفاني الوحدة، والخوف من وجودها في أرض غريبة مع رجل لا يحبها، ولا يهتم بامرأة لا تكن له الحب.

كانت ترى أن الحب وحده كفيل بأن يبعث في المرء الشجاعة، والرغبة في رؤية الأشياء الجديدة، ومقابلة حب استطاع الناس ومواجهة عداوتهم.

كانت رافينا هي الزوجة الثانية التي تأتي إلى قصر السرو، وحدثتها غريبتها بأن دوناتا كانت جذابة ومحبوبة من الجميع، وتتميز بالشعر الأسود والعينين العسيتين كفتيات الجنوب.

استدارت العربة عند إحدى منحنيات الطريق الجبلي، ولاحظت في الأفق أشجار السرو الشامخة، وبسرجا منزل حارك اللذان يبرزان عاليا فوق الصخور المظلمة على البصر.

كان القصر يبدو كقلعة مظلمة كثيفة، وأشجار السرو في هيئة حراس حوله، ومضى البرق بصورة متقطعة عندما أوقف حارك السيارة، ورأت رافينا درجات سلم

حجري، وعددا من المصابيح الحديدية معلقة على الجدران التي تحيط بالباب الأمامي المرتفع.

لشحت الريح فصالات شعرها، وملايسها وهي تغادر السيارة وسارت حتى وقفت عند أولى درجات السلم، ويبدو أنه لم يكن مناسبا أن تصل إلى هنا أثناء هبوب العاصفة، انضم إليها مارك، ولاحظت قطرات المطر تملأ صفحة وجهه وبريقا يتلألأ في عينيه.

قال لها:

* أهلا في بيتك الجديد. *

وقبل أن يلمسها هرعت تصعد درجات السلم لتقف تحت المدخل هربا من المطر. كانت ترتجف اضطرابا، وتحرص على ألا تكشف عن اضطرابها، قالت له وهو يقرع الباب:

* أستطيع أن أدرك سبب عدم وجود مفتاح للباب في حلقة مفاتيحك، هل الأمور هنا في الكازا تأخذ مظهر الفخامة الملكية؟ *

قال مارك وهو يتأمل الباب الكبير المثبت في الجدران السمكية للبيت:

* البيوت تبلى هكذا عاليا حتى تتحمل موجات الرياح الشمالية العنيفة الباردة، وموجات الرياح الشرقية الجافة المنقلة بالغيار. ولا شك أن الأبراج أقيمت لتعطي القلاع مظهرا يشيع الرعب في قلوب القراصنة الذين يتزلون في الساحل تحتها، وقدينا قالوا إن بيت الرجل هو قلعته التي توفر الحماية لهجانه وأهل بيته. *

وأدركت من طريقة حديثه أنه يجد سعادة وقхра بالبيت القديم المقيم البنيان الذي عاشت فيه أجيال متعاقبة من أسرته، وأحبته أشد الحب، ولهذا السبب كان يتوق إلى انجاب ولد يكون وريثا لهذه القلعة.

وفي هذه اللحظة انفتح الباب، وسارت رافينا إلى القاعة الكبرى حيث كان وميض البرق، يكشف دروعا عربية، وأثاثا عتيقا، ولوحات عائلية معلقة على الجدران الفطرية باللون البرونزي المتوهج كقطع الخشب المشتعلة في المدفأة. صاحت رافينا قائلة:

صيحة ارتجاج من شخص يكابد المرء في داخل جسده وخارجه، وأسرع لتركع فوق السجادة الصوفية، وتشابكت أصابع يديها طلباً للدفع، وطقطقت الأخشاب المشتعلة التي كانت الظاهرة الوحيدة المرحمة في تلك القاعة الكبيرة، ثم سمعت صوتاً يتساءل:

"أذن .. هذه هي العروس؟"

جاءت الكلمات فجأة من بين الظلال، فالتفت رافينا وأهفة القلب، ورأت شخصاً يجلس في مقعد بجوار المدفأة. كان للمقعد ظهر مرتفع، والتقوش قرين مسانده وأرجله، وكان الشخص الذي يحتل المقعد امرأة عجوزاً ترتدي ثوباً أسود، بينما استراحت قدمها على مسند القدمين.

استقرت عيناها على رافينا. عينا سوداوان، لا تشع الابتسامة فيهما راحة تأملان وجه الفتاة الشاب، وعينيها الخضراوين وشعرها الأحمر الذي يله المظهر.

وتطلعت رافينا إلى مارك، ورأت سمات الكبرياء في ملامحه وهو واقف إلى جوار المدفأة، واحتدت يده ليساعدها على السجود فتوهج خاتمه، وألقى الضوء على ندوب وجهه، فأجفلت رافينا من لمس يده. ونهضت وأهفة على قدميها دون الاستعانة به، ولم تحاول أن ترى القسوة التي ارتسمت على فمه، فقال لها:

"دعيني أقدم لك جدتي، دونا جوكانستا ليوناردي، عادة أدعوها لانونا عندما أكون هاديء المزاج."

تمتمت رافينا بالتحية التقليدية، وكانت قد تمنعت أن تلتقي بجدة مارك. إذ اعتاد أن يتحدث عنها بحنان. فهو سلتني، وبينها وبينه شيء مستعرك، ولو أن دونا جوكانستا تتحدث الإنكليزية بطلاقة إلا أنها لم تكن على مودة معها، ولا شك أنها تفكر هذه اللحظة في عروس سردينيا التي أتت بها حفيدة إلى البيت منذ ست سنوات مضت.

وكان على مارك أن يبتسم، وتألقت عيناها عندما

طلب شرباً، وقال:

"إنه من الواجب احتساء نخب لهذه المناسبة السعيدة." ونهضت دونا جوكانستا وأهفة على قدميها، فجعلت ثوبها الحريري الأسود، مثل أوراق الشجر الجافة وقالت:

"هل تسمحان لي بالانصراف، لأنني أمضيت اليوم بطولك في الإشراف على إعداد غرقكم، وتنظيف البيت. أنا متعبة يا ماركوس، وسأتناول وجبة خفيفة في غرفتي قبل النوم." قال بصوت يشوبه غضب هاديء:

"إن تناول كأس معنا لن يستغرق وقتاً طويلاً."

وتطلعت جدته نحوه، ثم إلى رافينا، ولاحت ومضة من الحقد في عينيها عندما استقرتا على رافينا. وقالت:

"لم تتقدم السن بي كثيراً حتى أنسى أن العشاق يحبون الانفراد، وأنا واثقة من أن عروسك تفضل أن تستحوذ عليك لنفسها."

وسارت الجدة نحوه، وربتت على خده المشوه بالندوب، وجالت يدها المتألمة بالخاتم فوق صفحته لتشاهد رافينا ملامحه مرة أخرى، ورأت الجدة في عينيها نفورا من لمس مارك، لذلك قررت أن تتركها وحدها في صحبتته حتى تعلم نفسها أن تكون تحت رحمة طلباته. وأحست رافينا بالبرودة تسري في أوصالها، حتى وهي قريبة من دفع النار، حين قالت السيدة العجوز لها:

"سيدة طيبة. أرجو أن تجدي غرفتك مريحة، حجرة العروس غرفة كبيرة ولكن ولا واحدة من عرائس أسرة كورزيو كانت تشكو منها."

وافق مارك جدته حتى فسحة واسعة تقع عند أول درجات السلم بينما وقفت رافينا تتطلع إلى النار. الدخان المتصاعد من الخشب، والسناج يشتعل من هديه ليطاير عالياً مثل تطاير اليراع في جنح الظلام. وتنبهت رافينا عندما شعرت بيدي مارك فوق كتفيها، عندما انضم إليها وهي مستغرقة في هذا الجو الصامت. وقال لها:

"لا تتبرمي بما قالت لانونا. إنها سيدة عجوز من أهالي سردينيا، وهي غاضبة لأنني لم أتخذ زوجة من بنات جنسي."

فأهالي سردينيا متعصبون لعشيرتهم ويتصفون بالكبرياء .

قالت رافينا بصوت هادي :

"يبدو لي يا مارك . . أن زواجك مني جلب الشقاء إلى قلوب ثلاثة أفراد !"

وأدار وجهها لمواجهة ، ورحلت يده اليسرى من كتفها حتى استقرت على راسها ، وسألتها :

"ما الذي يدعوك إلى الظن بأنني شقي ؟ بالتأكيد أنت تعرفين يا رافينا أنني أجلك فتاة جذابة ، بشعر كالأحمر ، وبشرك البيضاء ، وعينيك النحريتين ، أما عن سحر ك . ."

وحدقت في وجهه ، وأحسنت كأن قناعاً أسدل على وجهها فقال دون رؤيته . فسألته :

"ألا تجعل لمشاعري حساباً لديك ؟ هل أنا مجرد شيء بالنسبة اليك ؟"

انفجرت شفتاه وتلاآت أسنانه وسط وجهه الأسمر المشوه بالحريق واستدار عنها وهو يقول :

"أنت إنسانة تدخل السرور إلى القلب يا سيدتي ، ما هو ذا رنزيو أقبل لنا بالشراب . سوف نحسني نخباً ، وسنشعر بالدفع يسري في عروقنا ."

وصب الشراب من قنينة فينيسية في كأسين ثم تناولها أحدهما ، وأحسنت برودة الكأس في يدها ، أما الشراب فكان ذهبي اللون ، ورفع مارك كأسه وقال بلهجته الإيطالية :

"تحياتي ."

ونظرت رافينا إليه برؤانة ، وقد انفجرت خصلات ملتوية عند سواقيها وقالت له ببرود :

"لم أعود بعد على لغة أهل سردينيا ."

قال :

"سأعلمك كل شيء عن أهل سردينيا ."

كانت عيناه تحجلان معنى "عميقاً" ، وهو يقرب الكأس من شفتيه ، ثم أردف يقول :

"لا يمكن أن يتحقق التفاهم يا رافينا بدون نشوب معركة أو اثنين ، هذا ما يدفعني ."

جالت رافينا ببصرها على الجدران ، وتطلعت إلى صور

الأشخاص القريبة منها ، وأبصرت الظلال تلقيها التجمعات ، وفسحة السلم الكبير المؤدي إلى البهو ، ثم عادت لتقول له :

"إن ما يدفعني حقاً ، مختلف تماماً يا مارك ، لأنني لست ممثلة كتبت لها عواطفها لكي تؤديها . أنا هذا معك ومع هذا لا أشعر بأي عاطفة ."

فسألتها ساخرة :

"ولا حتى الخوف ."

وتحولت ببصرها من سلم الغرف العليا إلى غرفة العروس التي سوف تقاسمه النوم فيها ، وقالت له :

"هناك عواطف أقوى من الخوف يا مارك ."

احتسى نصفها في الكأس ، ثم قال :

"أظن أن العاطفة المضادة أقوى من الخوف ، ولكن لا مبالاة تك تسعدني إلى أبعد حد ."

وفي لحظة أرادت أن تقول له إنها تحس بالامبالاة نحوه ، ولكن هذا الشعور لم يكن صحيحاً ، لأنها كانت تحس بقوامه ولونه الأسمر وكبريائه كلها ممثلة في وقفته أمام المدفأة التي يضمها هذا البيت المطل على البحر ، بل إنها كانت تحس بعظمته . . . فقط عندما كان يشيح جانب وجهه المشوه بالتدبة بعيداً عنها .

قال :

"انتهي من احتساء كأسك ، حتى نتوجه إلى غرفتنا . أنت في حاجة إلى إنعاش جسمك بعد هذه الرحلة الطويلة ، وقبل أن نتناول طعام العشاء ."

واتخذت سبيلهما إلى فسحة السلم ، ورأت وجود عدة غرف وممرات تؤدي إلى أجزاء مختلفة من المنزل ، ولكن رافينا أحسنت أنها ليست سيده القصر ، وشعرت بأنها شخص غريب لا يشعر بالألفة في بيته .

قال مارك وهما يرتقيان السلم متجهين إلى البهو :

"جئنا نقيم في برج الفارس ."

ثم استدارا متلا وبارا في ممر يقود إلى سلم أصيق ، وأحسنت رافينا وهي تسير إلى جواره بأنه لم يقم مع دوتانا في جناح الفارس ، وإنما عاشا في الجناح الآخر .

فسألته:

"ماذا تسحي البرج التوأم؟"

"برج المادونا، أطلقت عليه هذا الاسم إحدى جداتي وهي فتاة حالية من توسكانا، وأن كان أهل سردينيا لا يستسلمون لمثل هذه الخيالات الرومانتيكية، لأنهم أناس عمليون."

كانت هناك نافذة تجاور سلم البرج وتسمح بدخول ومضات البرق التي كانت تهر أعصاب رافينا، وربما كان البرق والظلال المتراقصة سببا في أن تسرع بارتفاع الدرجات حتى كادت تقع على وجهها، لكن مارك كان أسرع منها إذ حد يديه ليحفظ توازن جسمها، وفجأة التفت ذراعاه حولها، فقاومت رافينا وهي تحاول الفرار منه ... مرددة:

"لا... لا..."

لكنه أمرها قائلا:

"أهدأي، تماسكي، أليس من التقاليد المتبعة أن يحمل العريس عروسه ويحبر بها عتبة المنزل؟"

وفي خطوة طويلة حملها وعبر بها عتبة غرفة النوم حيث كانت المصابيح مضاءة، والخطب مشتتلا في المدفأة، والدفء يشيع في أرجاء الغرفة وأثاثها، وظل مارك حاملا رافينا، ووجهها على عهدة من شففيه اللتين لا يبدو عليهما أية ملامح من الرحمة. قال لها:

"أنت تنظرين إلي، وكأنك تزوجت شيطانا..."

قالت:

"أنا متعبة يا مارك، وأنت دائما تعذبني."

وأسلت جفونها كأنها لا ترغب في رؤية نظراته، ومع ذلك كانت تحس بعينيها تتعلبان شعرها، وبياض بشرتها، ولأول مرة في حياتها أدركت كيف تبدو أمام رجل، وكيف جعلها تشعر بأنها مسلوقة الارادة. ولما كان هذا الرجل هو مارك، فأنها كانت تود أن تنشب أظافرها في جسمه حتى يشعر بالألم. قالت له بوحشية:

"كم أكرهك، وأكره هذا المنزل، وهذه الجزيرة التي نفخر بها، أبحار مبنية على أحجار، وأنت لا تقل تحجرا عنها..."

قال ساخرا:

"مجرد كلمات، هل تظنين أن مجرد كلمات تستطيع أن تجرحني؟"

قالت له:

"وهل تظن أن شيئا يمكن أن يخرج حجرا... إلا الحجر، ولا يوجد شيء أكثر برودة من امرأة باردة..."

قال:

"مجرد وعود، من شقاء ناعمة..."

ثم أردف يقول:

"إنني لم أتزوج منك من أجل كلمات ناعمة أو نظرات ناعمة، أو خضوع مستألس وإنما تزوجت منك لأنني أريد طفلا، بكل الروح والمرح الذي كان يتمتع به دريستي..."

وأحست في هذه اللحظة أنه يتخرج الألم، وأن العذاب القاسي هذه حتى دفعه إلى أن ينزلها من على ذراعيه، ويبعدها عنه بقوة، والقسوة تكسو وجهه المشوه بالندوب. قال:

"أحضروا لك ماء الاستحمام..."

وأشار إلى أباريق نحاسية موضوعة على عتبة الحمام، ومناشف داخلة، وستارة شفافة أسدت أمام الحمام. ثم أردف يقول:

"أسباب الراحة هنا ضئيلة إلى حد ما، ولكنك ستشعرين بالدفء قرب المدفأة، دبرت لانونا وصيفة صغيرة لخدمتك، لأن أغلب الخدم هنا من الرجال، وهذه الليلة يمكنك تدبيرها بنفسك..."

قالت رافينا بهدوء:

"لا حاجة بي إلى وصيفة، أنت تعرف أنه ليس لدينا أية واحدة في رافن هول وأنني اعتدت على أن أدبر أموري بنفسي..."

"أنت الآن في كازانشيريسو، والموقف متغير، سوف أخبر رنزيو بأن يجلب فتاة صغيرة من فتيات القرية، أنت البادروتشينا ولا بد أن يكون لك وصيفة خاصة تهتم بعلايتك وتصفف شعرك..."

قالت له وهي تنظر إليه بنظرات متحدية:

"ألا يعجبك شعري كما تراه... يا سيدي؟"

"ستعديته كما كان بالأمن وهو تحت طرحة الزفاف، وسوف ترتدين ثوبك المخملي الذي شاهدتك به حينما قدمت لتناول الطعام في رافنهول أول مرة، هل أحضرت الثوب معك؟"
 وراودتها الرغبة في أن تخبره بأنها نسيت الثوب في انكلترا، وقبل أن تنفوه بكلمة سار مارك إلى دولاب ملابسها وفتح أبوابه الكبيرة، ورأت ثيابها منسقة على المشاجب وبدا لها الثوب المخملي الذي رفعه مارك من مكانه. وأحست أن إصرار مارك على ارتداء هذا الثوب يعد تدخلا سافرا في استقلالها الشخصي، وأرادت أن تنزع الثوب من يديه، وأن يدعها وحدها. قالت له:
 "حسنا لن ارتدي الثوب."

وضع مارك الثوب على الفراش، وقال لها:
 "سأكون في الغرفة المجاورة، وسأدعك وحدك حتى تستعدي لحفل العشاء الذي أعد خصيصا لإزافنا."
 توارت وراء الستارة، ونصت ثيابها عنها، وراحت تستمتع بدفء الماء الساخن، الذي هذا أعصابها المضطربة، وبعدما استحممت لغت جسمها في منشفة كبيرة، وغادرت الحمام، وسارت حتى وقفت أمام منضدة الزينة وشد انتباهها علبه من القطيفة مفتوحة، تحتوي على قلادة زمرد مزينة بسلسلة مرصعة بالماس.

سرت رعدة في بدنها وخشيت أن يكون مارك دخل الغرفة أثناء استحمامها ليضع العلبه على منضدة الزينة وشاهدها من خلال الستارة الشفافة، وكلما فكرت قليلا وجدت أن من حقها أن يأتي ويخرج من غرفة نومها كما يشاء، وأن يقدم لها حلبة إعجابا. ورأت أن القلادة تتمشى مع خاتمها وثوبها المخملي، وشعرها الأحمر.

أشاحت بوجهها عن الهدية، وارتدت ثيابها بيدين باردتين كالسلح وعقدت شعرها في تصفيفة كالساج، وسمعت مارك هزة ومرتين يسير في الغرفة المجاورة، وتارت أعصابها عندما قرع الباب يستأذن في الدخول فأذنت له ودخل وهو يرتدي ثياب السهرة، وبدا في قوامه الفارع رجلا بل سيدا للموقف.

قال:

"أه... أنت مستعدة... تقريبا!"

وتطلع إليها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، فرأى بشرتها البيضاء تبرزها فتحة ثوبها المخملي، وشعرها الأحمر الذي يزين رأسها، وعينيها الخضراوين. وأحست رافينا براعماة خفيفة عندما رأت ومضة أعجاب في نظراته.

تقدم مارك والتقط القلادة من علبتها المخملية، واستدار حتى وقف خلفها وقال:

"دعيني أثبت القلادة حول عنقك."

وتطلع إلى المرأة، وسلط بصره على نظراتها، وأردف يقول:
 "تعجبك القلادة يا رافينا، اليس كذلك؟"
 قالت بصوت بارد:

"إنها رائعة للغاية، إنها جزء من ميراث العائلة وأنا أخذته. اليس كذلك؟"
 فقال لها:

"أنت أخذته لأنني أعطيتك لك. هناك قرط يتمشى معها، ولكنك في الوقت الحاضر صغيرة على ارتدائها. أذاك صغيرتان، وهما جميلتان في حد ذاتهما، ويجب ألا تفسد جمالهما بأقراط ذهبية ثقيلة. أنت فاتنة وكل عرائس أسرة دي كورزيو ترسم لهن صور زيتية في السنة الأولى من الزفاف، وسوف أستدعي الرسام ستيليو فابريزي ليرسم لك صورة."

لم تجد رافينا أي جدوى في المعارضة، ولو قدر لها أن تعيش في سردينيا لتمنت أن تفجر الصخور التي يقوم عليها القصر، والبحر الذي يقع تحته، وفي هذه اللحظة راودتها الرغبة في أن تسبح، ولكن خالجها شعور بالبكاء، وهي تتقدم مارك، وتخلف وراءها غرفة نوم الزفاف.

★ ★ ★ ★

أعدت فائدة العشاء وصفت عليها أطباق لحم السمك،
والفاكهة وكؤوس الشراب، وفي وسطها وضعت الزهور، وعلى
ضوء الشموع أقبلت رافينا على تناول الطعام بشراهة، ولم
ترفض كأساً ثانية قدمها لها مارك بعثت الدفء في
جسدها، وأصابته عقلها بخمول، وكان ذلك مقبولا مع الغربة
التي تحيط بها.

تحدث مارك إليها عن الجزيرة وتاريخها حتى تركا
الحائدة، وتوجها للجلوس بالقرب من المدفأة، وجلس مارك
على أريكة كبيرة بينما راحت رافينا تصب له فنجان قهوة.
قال لها:

"الأمسيات بدأت تميل إلى البرودة."

ناولته فنجان القهوة وهي تتجنب لقاء نظراته، وقالت له:
"أحب النار، إنها تجعل الغرفة تبدو في صورة بهيجة."
قال بالاطمئنان:

"حسناً."

وشعرت بنظراته تحديق فيها وهي تجلس على مقعد
بمساند، اللون الأحمر المتوهج يشابه لون الأريكة. سألتها:
"هل تبعث هذه الغرفة على السهجة؟"

وتطلعت حولها، وشاهدت الشموع ما زالت مشتعلة، ورات
لوحة جص في السقف تصور عاشقين من العصور الوسطى
تشابكت أيديهما، والحدريات ترقص مع الأغريق. كانت
الغرفة تتسم بالوثنية: مثل الرجل الذي يراقبها برأسه الأسود
الذي أسنده على ظهر الأريكة الحمراء. قالت:

"لا بد أننا نعيش في قرن آخر غير هذا القرن، كان الزمن
توقف هنا في كازانشيريسو، وأن أيام النار والحدارزات
وصيد الصقور ما زالت تعيش بيتنا."

"هل بضايقتك ذلك؟ ربما تمين بصفة لتلك الأيام. لديك سمة
العصور الوسطى التي قيل أنها تعود تحيا على بعض الوجود،
إنها سمة من الحزن والكآبة."

سألته:

"هل لي أن أبتسم يا مارك؟"

وبينما كانت رافينا تسأله، التفت بعينيه الخالكتين في
السواد. كان وثنيا حتى بات لا يكثر كثيراً بمشاعر عروسة.
نزعته النار بدأت تموج في أعماقه ولن يسلم شرفه حتى
يدفع بريتين ثمن موت دريستي، ويطلق لهيب الألم
الذي يحرق قلبه.

وتحولت نظراتها إلى النار، واللهب الذي راح يسري في
أطراف الحطب وفكرت أن الهرب من مارك كان في تناول
يدها، إذ كتب لها رودري ذات مرة رسالة بعث بها من
استراليا، متوسلاً إليها وإلى أسبها أن يلحقا به هناك، لأنه
أصبح يفتقدتهما كثيراً، ولكن نيوسوث ويلز كانت تبدو لها
نهاية العالم، وأن الرحلة منهكة لجاردي.

سألتها مارك:

"هل أنت قلقة علي جاردي؟"

انتابها توتر مفاجئ. "أليس غريباً أن مارك يقرأ أفكارها،
أجاب بصوت يشوبه الألم:

"أنا... أنا افقدته."

"هذا شيء طبيعي."

"أوه... مارك."

وأحس كأن سكيناً يقوص في قلبها، وأردفت تقول:

"هل تهملك مشاعري، وهل يقلقك أنني أشعر بالأسى ليعادي
عنه. إن عزائي الوحيد هو وجود رودري معي."

وخيم صمت مطبق عقب أن نفوحت بكلماتها، وتطلعت
إلى مارك ورات في عينيها تطاير الشر، فقال:

"أذن رودري بريتين موجود في رافنهور. إنه بريتين
الذي توجهت إليه لمقابلته عقب زواجنا مباشرة. وكان يجب
عليك رؤيته! كان من المحتم عليك تحذيره لكي يكون بعيداً
عن طريقتي."

قالت بياس:

"أجل، أرسل برقية وكان لزاماً علي أن أراه. كنت خائفة
للغاية."

سألتها:

"خائفة على عنقه التمين؟"

كانت عيناه تتألقان بوميض يجذبها إليهما ويفرقها في بحرهما، فقفزت واقفة على قدميها، وفي قفزتها اقتربت حافة ثوبها من لهيب النار، وتعلق لسان من ألسنة النار بالحافة، وعندما أدركت الخطر الداهم، أطلقت صرخة ووجدت الماء ينسكب من دورق زجاجي وأحست بيدين تمسكان بها وترفعانها بعيدا عن النار.

قال مارك:

"أيتها الحمقاء الصغيرة!"

ولاح احتقاع لون وجهه تحت جلده المحترق، فبدت الندبات جليلة واضحة، وأردف يقول:

"هل أعماك رودري برنين حتى أصبحت لا ترين شيئا أبدا."

وراحت يدها تعالجان الكدمات التي لحقت بها، وكانت تنورة ثوبها المخمل بلها الماء، وأصبح غير صالح للارتداء، وانتابتها رجفة، فأغرورت عينها بالدموع، من الخوف والرعب اللذين اجتاحاها حتى أنها لم تعد ترى سوى الجانب المحترق من وجهه، والجحيم الذي ضاقت به ذرعا. قالت معارضة لا مدافعة:

"لا."

وكانت صرخة أطلقتها ضد الألم الذي قتل شعور الرقة فيه، وكل اتزان في نفسه، وتركها ترحل عنه، وأدار وجهه بعيدا عنها وقال لها:

"خير لك أن تتوجهي إلى الدور العلوي، لتستبدلي ملابسك المبتلة، وسألتحق بك بعد فترة."

تركته واتخذت سبيلها عبر الصالة، وارتقت الدرجات، وارتجفت برداً عندما لحست أصابعها ثوبها المبتل الذي شوهه الحريق. قلن يكون في وسع مارك أن يدع الرسام يمسك فرشاته ليرسحها وهي مرتدية هذا الثوب المشوه، إنه سيحرق حقا... ولكن الحروق أفسدته.

وشعرت بارتياح حينما وصلت غرفتها في البرج، وخلعت الثوب. وكانت أعطية الفراش مطوية، وعليها ملابس النوم، فارتدت ثيابها على ضوء المصباح، والنار المشتعلة في

المدفأة، ثم جلست فوق مقعد مستدير وراحت تتأمل الوجه الأخير للنار.

كانت هذه هي ليلة زفافها... ولا جدوى أن تسأل مارك أمهالها حتى تغتاد عليه، وعلى بيته، أجفلت عندما سمعته يدخل الغرفة المجاورة. مع مرور الثواني ازداد قلقها، وراحت تعبت بخاتم زواجها الذهبي الذي أحست به ثقيلًا في أصبعها، وسمعت سقوط مفتاح على المنضدة، وحرير السرير الذي تم عن جلوس مارك على حافته ليخلع حذاءه.

لم تستطع رافينا أن تبارح مقعدها حينما فتح باب الغرفة المجاورة فجأة ووجدته جاثلاً أمام عينيها في روبه الحريري الأسود، وراحت تحديق فيه بعينيها الواسعتين وقد استحال وجهها إلى صفرة أشبه بصفرة ثوبها.

قال لها بينما كان شعرها الأحمر ينسدل مسترخياً على كتفيها:

"يجب ألا تجلسي هكذا، فالنار ذوت تقريباً. اقفزي إلى فراشك."

ولكن رافينا لم تستطع التحرك من مكانها، وبدت الغرفة يثقلها ظله حينما أقبل عليها، ورفعها من فوق المقعد، وحملها إلى السرير ووضعها على الفراش واقترب بوجهه منها، ورأت القصب ما زال يتطاير من عينية.

أصبح يعرف الآن أنها كانت بصحبة رودري حينما اختفت من قاعة الاستقبال يوم زفافها، وأنه لن يغفر لها ما فعلته.

قال لها وهو يجدل خصلات شعرها الأحمر حول عنقها:

"أيتها الساحرة الصغيرة."

انتابتها رجفة. لم تستطع السيطرة عليها، لأن رودري وحده كان دائماً يناديها بعبارة الساحرة الصغيرة، فأغمضت عينيها حتى لا ترى وجه مارك الممعدب في ضوء المصباح. قالت له صائحة:

"أطفئ المصباح... أطفئ المصباح!"

وخيم الصمت... وسمعت صوت فرقعة. ولم يكن صوت إطفاء المصباح، وإنما كان صوت مزلاج الباب الذي أغلقه مارك بعد مغادرته غرفة النوم، إذ تركها

وحدها، بينما كانت حملة الشعر ما زالت معدولة حول عنقها
والدموع تنهمر على وجنتيها .

★ ★ ★ ★

٣- رجل لا كالرجال

أخيرا نأمت رافينا بعد ليلة خالكة وسهاد طويل .
وعندما استيقظت في الصباح كانت الشمس تشلّل الى غرفة
نومها تحمل معها الدفء وشذى الأعشاب ونسمة البحر . ظلت
في فراش العرس تنأمل الغرفة، ووقع بصرها على المقعد
المستدير قرب المدفأة، فتذكرت أنها جلست عليه
بانتظار مارك، وحملها كالطفل في ذراعيه، وزيما لسلوكها
الطفولي معه، تركها ولم يلمسها . فنشبت بالبكاء، ونأمت
وحدها في غرفة الزفاف .

غادرت الفراش لتجد دلوًا نحاسيًا مملوءًا بالماء الدافئ،
واستمتعت بخدمات أعاد الانتعاش إليها، ثم فتحت خزانة
بلايسها وأحست برغبة تحدوها أن تتمتع بالحرية والانطلاق
خلال يومها، فاختارت بلوزة ملونة وسروالًا فضفاضًا، ومشطت
شعرها وأرسلته على ظهرها، ووضعت لمسة من أحمر الخدود
لتخفي معالم شحوب وجهها الذي نجم عن التوتر الذي كابده
خلال أول ليلة أمضتها في كازاسبيريسو . وعندما اتخذت
طريقها للخروج من الغرفة، وشرعت تهبط درجات السلم
الفلزوني للبرج، شعرت بالجوع ينشب أظافره في معدتها .

ولم تجد أية إشارة تنم عن وجود مارك، افترضت أنه
يقوم بجولة تفقدية على البساتين وحقول الكروم التي تحيط
بالكازا . وبدأت رافينا تتساءل إذا كان البيت هجره أهله،
عندما رأت رينزيو يعبر الصالة في سترته البيضاء، ثم
قال لها بالاطيالية وهو يحدق في سروالها الفضفاض:

صباح الخير يا بادرونسيستا

قالت له بالانكليزية:

أحب أن أتناول طعام الإفطار يا رينزيو.

وكانت تعلم أنه يفهم الانكليزية لأن مارك أخبرها أثناء تناول طعام العشاء بأن رينزيو كان يعمل في فنادق أوروبا.

قال:

البادرون لم يعد بعد من جولته الصباحية، وعلى البادرونسيستا أن تنتظره، لنضم اليه في الشرفة المطلقة على البحر حيث اعتاد تناول طعام افطاره.

بدت رغبة شغافة في نظراتها وهي تسأله:

الشرفة المطلقة على البحر؟ انتي لم أرها .. هل تقودني إليها؟

واضحى رينزيو واختارفا الصالة، ثم سارا في محر هيبق، وعبرا مدخلا يؤدي الى الشرفة التي امتلأت بأشعة الشمس، والمفعمة بهواء البحر وكانت الشرفة تبرز الى الامام لتطل على البحر مباشرة، ومخاطبة بسياج من القضبان الحديدية تأمينا لسلامة الواقفين.

وتتمم رينزيو قائلا:

البادرونسيستا سوف تنتظر وصول طعام الإفطار.

قالت:

أجل.

وسارت الى نهاية الشرفة، مأخوذة بمنظر الجبال، والأمواج تتكسر فوق الصخور التي تجمعت على الشاطئ، كأنها أطلال قلاع محطمة وشاهدت النسر ترقرق فوق صفحة المياه، أدهشها أن يحب مارك تناول طعام إفطاره في مثل هذا المكان، هذا الملك الذي يتمتع بمشاهدة هذه المناظر الطبيعية، وسيد هذا البيت الكبير القائم على المعقل الصخري.

... ها هنا ملأت المزاراة فحة، فقسا قلبه بعد موت ابنه

دريستي وخاصة أنه يملك كل هذه القرى. بلا ابن يرثها.

وقفت رافينا عند سور الشرفة، والرياح تعبث

بشعرها، وعلى شحاتها ملامح العروس الأسيرة، وكانت تعلم أن مارك سوف ينضم اليها حالا، فتولدت أعصابها من يقابله بعد الموقف الدرامي الذي شاب فراقهما ليلة أمس، وأبذرتها أعصابها بدنو وصوله قبل أن تسمع وقع خطواته فوق أرضية الشرفة.

امتلا الجو بشحنة كهربائية استطاعت أن تشعر بها وهي تسري في عمودها الفقري الذي تجمد عندما وقف وراءها وهو يقول:

صباح الخير. أظن أنه لم يستغرق منك وقت طويل حتى تعثري على وكري، أخبريني كيف ترين الآن الكازا والبقاع المحيطة بها بعدما أشرقت عليها شمس الصباح.

قالت:

أكثر وثنية مما كنت أتصور.

وشعرت بضربات نبضها عندما تحولت لمواجهته، ووجدته يتأمل الشمس وهي تسقط بأشعتها على شعرها، وكانت تتوقع أن تلاقي منه برودا هادئا ومقاطعة مهذبة بعدما حدث ليلة أمس، ولكنه ابتسم ورفع حاجبا متعجبا للملاحظة التي أبدتها، وسأل:

هل تريده وكر قاطع طريق يحتفظ بك رهينة انظارا لفدية يدفعها أمك، لا تقاذه؟

وتناول يدها التي تتحلى أصابعها بخواتمه، وأحس رأسه الأسود ومست شفتاه يدها، فاشتت رائحة ثمار الليمون عالقة بشبابه. كان يقوم بجولة في حقول الليمون التي نصبت وغدت معدة للعصر وتعبئة عصيرها في مصانع الموالح التي تقع على بعدة من الجزيرة، ذلك أن دي كورزيو ماركة محيرة على جميع المشروبات المماثلة. وتتمثل الماركة بصورة نهر جاثم فوق صخرة يلحق الماء من نهر جتدفق.

سألها:

هل استمتعت بنوم عميق؟

وفي صوته نبرة سخرية. لم تستطع أن تنظم الى نظرائه وهي تجيب على سؤاله بأنها نامت نوما عميقا. قال:

صا.

وتحول عنها، عندما ظهر رينزيو في الشرفة وهو يحمل صينية عليها ألوان من الطعام، ويتبعه خادم صغير السن يحمل دورق القهوة، وراح الخادم الصغير ينظر إلى شعر رافينا الذهبي، لأنه اعتاد أن يرى فتيات كاسيل ديل توري بشعر حالك السواد، واضطر رينزيو إلى أن يزرجه فانصرف خائفاً وشعرت بأن الخادم المدعور بحث في أعناقها بعز يد من القرية عن ذي قبل. وقام رينزيو بأعداد مقعد أمام المائدة جلست عليه رافينا فقال له مارك:

"يمكننا أن ندبر أمر افطارنا بأنفسنا".
قالت له:

"بدو سلوكك غريباً معهم".

وراحت تراقبه وهو يصب لها القهوة، ويقدم لها طبقاً من حلوى التروفييل وشريحة من الخبز المحقود. واستطردت تقول:

"أنهم غرباء نسبة إلى، إنك لا تتصور ماهية شعوري يا مارك. نصف حاملة لا أكاد أتصور أن هذا المكان واقع حقيقي. وأن زواجنا تم فعلاً".
قال لها:

"تناولي طعامك يا رافينا. إن التروفييل مثل الحب، يفقد شيئاً من نكهته عندما يصبح بارداً".

وكانت رافينا تشعر دائماً بقبضة تعترض قلبها إذا ما بدأ يتحدث عن الحب. ماذا يقصد بالحب؟ أن يمسك بها بين ذراعيه، يحتلها دون أن يشعر بأية حرارة مما كان يشعر به نحو دوناتا... فتاة الجنوب التي فقدتها كما فقد دريسكي.

كسرت رافينا الخبز، ودهنته بالزبدة، ووجدت التروفييل حلو المذاق واللحم لذيذاً، وحاولت ألا تفكر في طعام الافطار الذي اعتادت أن تتناوله في صحبة جارددي، وقريباً من جبال ويلز المعروفة، ومن وراء نوافذ رافنهيول.

سألته:

"هل تتناول جدتك طعام الافطار في غرفتها؟"

أجل... لأنونا بدأت تشعر بسننها المتقدم، وغالباً ما تمضي الليل تكابد الأرق فينتابها الأعباء عند الصباح، وقد اعتادت وصيقتها بابتسما أن تقرأ لها إذا جاغها النوم. ستجدين القوة في شخصية الساردي فلا يلتبس عليك الأمر فتظنين أنهم يفتقدون الحنان. وحينما نعتاد لأنونا عليك وتتقبل حقيقة كونك زوجتي، ستكتشفين أنها أقل تهكماً عما حدث حينما التقيت بها يوم محبتك".

لم تستطع رافينا أن تمنع نفسها من سؤاله:

"هل هناك علاقة بين كون المرء سردياً، وبين كلفة ساردونيك؟"
(٣) ٤٤

"هل تظنين أنني شخص مثلكم مريب؟"

قالت:

"بالتأكيد أن زواجنا أكبر دليل على صراحتك".

"إذن أنا شخص مريب... وأنت تشعرين بأنك ضحية لصراحتي".

"أعرف أنه شيء فظيع بالنسبة إليك أن تجتاز هذا الشعور، ولكنه دفعك إلى أن تكون قاسياً، وأنه لقسوة منك يا مارك أن تتوقع أن يكون سلوكي ينم عن رغبة في أنني "أريد" أن أكون هنا، وما المسألة إلا مجرد وقت أعد فيه نفسي كزوجة للتكيف على حب زوجها".
قال:

"لا أطلب أن تمنحيني حبك".

فسألته:

"كنيني أسأل عن نفسي أنا... وماذا أريد؟"

"إذا كنت تريدان رودري برينين، فأظن أنه خير لك أن تبقى معي".

وكانت كلماته باترة كحد السكين التي كان يستخدمها في قطع شريحة بطيخ مفعمة بالعصير. سألتها:

"هل تحبين أن تتناولتي شريحة منها؟ إن بطيخ الجزيرة حلو المذاق".

هزت رأسها وقد تشبثت أصابعها بحافة المائدة عندما رأتها يضيف السكر إلى شريحة البطيخ، وراح يلتهم الثمرة،

يهوداء يبعث على الجنون ورأت أن اهتمامه به كاهرة لا يزيد
عن اهتمامه بشريحة البطيخ . سألتها :

"هل تأذن لي بالانصراف؟"

وأمسكت بمنشفتها وألقته على جانب طبقها، وشعرت
بنظراته مسلطة عليها عندما تركت الطاولة، وتوجهت نحو
جدار الشرفة، ووقفت تحديق في الجبال التي لمستها أشعة
الشمس الذهبية، ولقي الجمال الوثني للمنظر صدى لشعورها
بالشفاء، ورأت أن هذا المكان يجب ألا يكون مضيئا، وإنما
يجب أن يكتنفه الظلام الدامس حتى يتلاءم مع حالة اليأس
التي تكايدها .

سألها مارك :

"هل تذكرك جبالنا بويلز؟"

"لا شيء هنا يذكرني بوطني ."

"أنت تحلمين في نبرة صوتك برودة ويلز؟"

قالت :

"وفي قلبي أيضا . يا مارك ."

واستدارت لتتخذ وضع المدافع، ثم أردفت تقول :

"ألا يكفي أنك حصلت علي، لا تطلب أن أحب سجنك ."

"يبدو لي كأنك تزعمين الثورة ضد الجزيرة . وضدي أنا ."

نهض واقفا، وسار نحوها مثل النمر المتحفر للوثوب،

وحينما دنا منها، رأت بوضوح الندوب محفورة على يديه

فتدحرجت بالصبر لكي تتحمل لسانه حينها أدار ذقنها،

وأجبرها أن تنظر إلى عينيه قائلا :

"هل تظنين أنني تزوجتك لمجرد شعوري بالمرارة فقط؟ هناك

شيء أكثر من هذا يا رافينا ."

قالت :

"الرغبة ."

وشاب كلمتها . احساس بالكرهية له .

قال وعلى شفثيه ابتسامة متوهجة :

"أجل . بعض من هذا، بالإضافة إلى أنني اكتشفت أنك

مثيرة، مزيج من البراعة والخداع . أنت وحدك

يا رافينا لديك القدرة أن تجعلني أعصابي تغلت فني

أو أسيطر عليها بسرعة . لديك روح عالية وأنا لا أحب تحطيم
أي روح عالية ."

"ولهذا السبب لا تحمل في يدك سوطا . لأنك في غنى عنه؟"

"الشخص الضعيف فقط يحتاج أن يمسك سوطا ليروض امرأة

أو حصانا ."

"إذن أنت تنوي ترويضني؟"

مز رأسه، وراح يدفع خصلة من شعرة إلى الوراء بعيدا عن

حاجبيه ثم قال :

"لا . . . عندما تمتطي سويا جوادينا، ربما ستعثرين على جواب

لسؤالك وعندما نكون سويا على صفحة الماء، وفي خضم

العاصفة ستعرفينني أكثر . لست أحب الأشياء التي تروض .

إنني سردي . أحب بربرية شمسنا في أوج الصيف وقوة الريح

عندما تهب من الجبال، ولسعات أشجار السرو، ولطجات أمواج

البحر، وسقوط حبات الزيتون تحت أشجارها . أنا سردي يا

عزيزتي . إننا لا نقبل أية تسوية للأمور مذلة، ولا نقبل ترويضنا

لأخضاع المرأة ."

وعندما نظرت إليه عرفت السبب الذي دفعه إلى أن يتركها

ليلة أمس فإن الخوف الذي تملكها ليلة أمس لم يجذبها إليه،

فالرجل يحب من المرأة أن تتحول دموعها إلى ابتسامة،

وتشعره بأنها في حاجة إليه .

فقالت فجأة :

"دعني أرحل يا مارك ."

وتطلع إليها بابتسامة لوت شفثيه، وأبعد يديه عن يديها،

واستند على سور الشرفة الذي يحول دون سقوط المرأة إلى

أعماق البحر . واستطردت تقول :

"دعني أرحل إلى وطني، أعني حررتني من هذا الزواج ."

"هنا وطنك ."

"يمكننا . . . يمكننا أن نفسخ هذا الزواج . يا مارك . . ."

وتحول ببصره ليحدق في أمواج البحر القائرة، وبدأ جانب

وجهه المشوه مثل الحفر على وجه عجلة برونزية، وقال :

"تطلبين شيئا لا أستطيع أن أمنحك إياه . اطلبي ملابس ."

حتى . . . حديقة تزرع عيناها بالورد . . . حصانا لنفسك وفتيات

يسعدهن التعرف اليك، لا أبخل بأي شيء، ولكن في حدود المعقول..

"هل يعتبر فسخ الزواج شيئاً بعيداً عن المعقول..؟" (ننا لم..)

قال مقاطعاً حديثها:

"سيحدث يا رافينا، فقط إنني لم أستعد شيئاً مما قلته لك يوم أن أتيت الى رافنهول، وأخبرتكَ عن دريستي. سأمنحك كل شيء يمكن لرجل أن يقدمه لفتاة، فقط امنحيني طفلاً منك أنت يا رافينا، بكبريائك وعينيك الجميلتين، وولائك لأسرة برينين.."

"الولاء الولاء..؟" كانت الأمواج تتردد الكلمة في عقل رافينا، وطيور البحر تصرخ عالياً، وكان مارك وحده يردد لها وهي تشعر أمامها بالعجز يشل سكانتها..
قالت:

"الطفل يولد من الحب.. كما ولد دريستي.."
نظر إليها بخشونة فبدت ندوبه أكثر غوراً عن ذي قبل وقال:

"لن نتحدث عن دريستي، ولكنني أريد أن أريك بعضاً من ضيعتي، الشمس حارة، ومن الأفضل أن أغير لك على قبعة.."
وعثر مارك على قبعة قش في كهفه وهو غرفة فيها كل أسباب الاسترخاء، والهدوء. ثبتت رافينا القبعة فوق رأسها دون الاستعانة بمرآة وسوت شعرها تحتها، وجعلت هافتها تظلل عينيها..

"أنت لست مغرورة بمظهرك.."

"الغرور كالخوخ سهل الخدش، وفي أي حال أنا لست فائنة.."
قال مارك:

"أنا سعيد بذلك، إن أي رجل يعيش في أعماقه شيطان القيرة لا يستطيع أن يحتفل بمغازلة أحد لزوجته. تعالي، دعيني أريك حدائق الليمون.."

وفتح باباً يفضي الى الحدائق التي امتلأت بأشجار الليمون، حيث راح عدد كبير من الرجال يتفحصون الثمار، وتحمل مارك ليتحدث معهم وليقدم اليهم عروسه..

وأدركت رافينا أنه يعني بذلك أن يوطد أواصر زواجه، فأصبحت في نظرهم امرأة البادرون وأي تفكير في فسخ الزواج، يقلل من قدر سيدهم ومكانته عندهم. وتذكرت أنه قال لها في استغلاء وكبرياء:

"أنا سردي.."

وبدأت رافينا تدرك تماماً أن الكبرياء والكرامة تعنيان الشيء الكثير لدى أهالي سردينيا..

سردينيا حيث تنمو أشجار الريتون بين صخورها، والشمس تغرق القراب بأشعتها، وقوة الأرض تكسو وجوه ناسها، ورائحة الأعشاب وأشجار السرو تطلأ اللال التي انتشرت فوقها حدائق الريتون..

كانت القرية تقع على قمة التل، وأبواب المنازل والنوافذ ضيقة، وسطوحها تميل في انحدار واحد، والحواريات أشبه بالكهوف تنبعث منها رائحة أكياس الحبوب والأعشاب، وقامت رافينا بجولة في القرية فشاهدت الكنيسة العتيقة ورأت النافورة التي تتوسط الميدان، وكانت النساء اعتدن تعبئة جرارهن منها، حتى تعيد أنابيب الماء من الجبال الى البيوت. وأدركت رافينا أن مارك بذل جهداً لتوصيل الماء الى بيوت القرية، ونمحت بعض النسوة جالسات أمام الأبواب يعملن في مغازل صغيرة، كل واحدة منهن تنحني برأسها للبادرون، بينما تحديق في قوام رافينا التحيل وسروالها القضااض..

ورؤية هؤلاء النسوة ذكرتها بدونا جوكاستا التي كانت تأمل أن يتخذ مارك عروساً من بنات جنسه. ولم تستطع رافينا أن تقاوم رغبتها في أن تتطلع الى داخل البيوت فرأت الدجاج يمرح في الفناء، والأثاث العاري من كل زينة، وأكوام البصل والسجق معلقة في السقوف.. الصمت مخيم لأن الأطفال كانوا يتلقون العلم في مدرسة القرية، وعندما مرا بابها قال مارك:

"المعلم السنيور لاندولغو يتناول أحياناً طعام الفداء في الكازا.."

وفي هذه اللحظة خرجت طفلة من المدرسة تبعث عن شيء

فقدته على الأرض، وقبلة اتحنى مارك ليلتقط منديلا سقط بالقرب من الباب، وتحدث معها وهو يقدمه لها، ولكنها ولت هاربة حين رأت وجهه المشود ورائته رافينا يسحق المندبل في قبضة يده، ثم وضعه على قمة عمود الباب، وواصل سيرهما، قالت رافينا بسرعة:

"لا تأبه يا جارك."

ولاول مرة أدركت مدى الجرح الذي أصابه عندما فرغت الطفلة من رؤية التدبة الغائرة في وجهه، وولت منه هاربة، ولمست ذراعه ولكنه سحبها بعيدا عنها ليسى غصبا، وإنما كنوع من الشعور بالاستقلال.

قال:

"ليست هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها النظرة الخاصة في العيون، تعالي، إن هذه الدرجات الضيقة ستقودنا إلى البحر المؤدي إلى الكازار."

اشتدت حرارة الشمس، ولمحت رافينا منظر البحر، وودت لو تسأل مارك أن يتوجهها إلى الشاطئ، فيرطبا أقدامهما في مياه البحر، لكن صحته بعث القشعريرة في أوصالها، وشعرت بالسعادة عندما بلغت أخيرا جدار فناء الكازار وأخبرها أن هناك بعض الأوراق تنتظره في مكتبه ويريد إنجازها، ألقى نظرة على ساعة يده وقال:

"يمكنك تسلية نفسك بأي شيء، أو ربما تحيين التحدث إلى جدي فهي في هذه الساعة تتناول قهوتها في صالونها، وأظن أنك تشعرين بالحفاف في حلقك بعد رياضة المشي تحت أشعة الشمس."

وأدركت رافينا أنها لا بد أن تصعد صداقتها مع لانونا إن أحلا أو عاجلا، فوافقت على اقتراحه بتناول فنجان من القهوة معها، وقالت له وهو يسير نحو المكتبة:

"هل تنوي احتساء قهوتك... وحدك؟"

فالتفت نحوها، وهو يضع يده فوق مقبض باب مكتبته، ثم قال لها:

"إن ما لا أبتغيه منك هو الشفقة."

وفتح الباب ودلف إلى المكتبة وحده.

نزع رافينا قبعتها، وسوت شعرها، ودخلت الصالون وكانت دونا جوكاستا جالسة تحتسي قهوتها، وتدخل سيكارا رفيعا، ولم تستطع رافينا أن تمنع نفسها من التطلع إلى السيكار وهي تقول:

"هل أستطيع الانضمام اليك؟"

أقلت لانونا رماد السيكار، وهي تقول:

"يوجد فنجان إضافي لماركوس، أين هو الآن؟"

"لديه أعمال يريد إنجازها في المكتبة."

"كنت أظن أنك شغلته لتستمتعي برؤية القرية، تمالي واسكبي قهوتك، لا تقفي هكذا، نصف جسمك داخل الغرفة ونصفك الآخر خارجها."

أجابت رافينا بلهجة من يدافع عن نفسه:

"أرادني مارك أن أزور القلعة."

وسحبت العجوز نفسها من سيكارها بشكل ساخر وقالت:

"ألم يقل لك أيضا أن تحاولي مصادقتي؟"

ثم أضافت:

"أنت بحاجة إلى ما هو أكثر من عيتين خضراوين لذلك."

وتحرك اندهاش عميق في داخل رافينا حينما تبين لها أنها و مارك على علاقة وطيدة وأنها لا تعلم كم هي جزء من مأساة مقتل دريستي وتشوه حفيدها.

ارتجفت يد رافينا قليلا وهي تسكب القهوة وسرت حين جلست في الكرسي المريح لأن الأعصاب خابت قدميها، لم تكن دونا جوكاستا تقبلها لأنها ليست من الجزيرة فكم سيكون كرهها لها أعمق لو عرفت سبب اختيارها عروسا لمارك.

سألتها العجوز:

"هل أعجيك شيء في بلدنا؟"

قالت رافينا وهي ترتشف القهوة:

"أنا اعتدت أن أكون بنت قرية، ولذا استمتعت بالتجول في القرية ووجدتها مثيرة للغاية."

قالت الجدة بتحامل:

"أنت تتحدثين وكأنك تقومين بزيارة سريعة لها، يجب

أن تعصري كاسيل ديل توري من الآن فصاعدا بيتك. هنا
ستعيشين حيث تسلط الشمس أشعتها على جدارن الكازا،
والرياح الشرقية الحارة تهب ساخنة وجافة وتدفع الأعصاب
إلى التوتر، وعندما يأتي الشتاء تهطل الأمطار، فتتعرض
الطرق للمخاطر ولكنها لا تحول دون سفر مارك وحده، فهو
اعتماد على ألا يصحب زوجته معه في مثل هذه الأحوال الجوية،
حتى لا تصبح الكازا سينربسو تنغي الوحدة عندما يرحل في
رحلات عمل.

قالت رافينا بيأس:

"أنا .. أنا سوف أرحل معه. عندما يسافر إلى بريطانيا سوف
ياخذني معه. إن أهلي يعيشون هناك."

"أهل سردينيا يؤمنون بأن مكان المرأة بيتها."

"مارك لن يتوقع مني أن أخضع لهذه القاعدة."

وسحبت دونا جوكاستا نفسا عميقا من سيكارها وقالت:

"وماذا تعرفين أنت عن مارك بعد بضعة أيام من زواجك

منه؟ أنا تعهدته بنفسه منذ وفاة أمه عند ولادته. ورأيت

يشب حتى أصبح رجلا. هذا الرجل الذي لا تعرفينه .. الرجل

الذي كان قبل الحادث، تنهاقت عليه كل فتيات القرية. وكان

في وسعه أن يختار أجملهن .. ذات العطر الفواح .. والمزاج

الحلو."

وتطلعت البادرونا العجوز مليا في وجه رافينا، ثم أشارت

إلى خزانة خشبية تستند إلى الحائط، وقالت لها:

"أذهبى واقتحي الدرج الثاني وستجدين في داخله إطار صور

من الجلد، أحضره لي."

وامتثلت رافينا لطلبها، فتوجهت إلى الخزانة، وفتحت

الدرج الثاني وشاهدت إطارا جلديا من النوع الذي يضم

صورتين فأحضرتة لدونا جوكاستا التي قالت:

"افتحيه، وشاهدي الصور."

وأطاعت رافينا بينما قلبها يخفق خفقات سريعة، وكما

توقعت كان الإطار يضم صورتين أحدهما صورة لفروسين،

والأخرى صورة شخصية لمارك فتطلعت إليها ورأت وجه

شاب نحيل شديد الجاذبية، عيناه السوداوان تضحكان
ويملأهما الفرح والرغبة في الحياة، وقفه حسن، ينعطف
خادا مما يتوافق مع حاجته الأسرى. كانت هذه هي ملامح
صورته منذ ستة أعوام، أما الصورة الأخرى لمارك فلم تكن
معروفة لها. وهي صورة زواجه بفتاة مشرقية ترتدي طرحة
تحيط بشعرها الأسود وعينيها المظلمتين.

وسألته دونا جوكاستا:

"هل تعرفين أن زوجة حفيدي الأولى كانت بهذه الصورة

الجميلة ولها لوحة زيتية في برج المادونا، تصوري روعة

جمالها حينما كانت هي و مارك في أوج سعادتهما. يجب

أن تذهبي لمشاهدتها. دوناتا كانت حقا هدية من السماء

لرجل مثل حفيدي. وعندما استعادتها السماء أخذت معها

معظم قلبه. وعندما مات طفلها أدرك مارك أنه لن يجب

مرة أخرى، بالرغم من أنه كان من المحتمل عليه أن يعيش مرة

ثانية."

وأطفاأت دونا جوكاستا سيكارها في مظفأة نحاسية،

وكانت طريقة اطفاء السيكار لها دلالتها الواضحة، وكأنها

تريد أن تؤكد لها بأن الحب لن يستطيع أن يندلع مرة أخرى

في قلب مارك.

قالت الجدة:

"من فضلك أرجعي إطار الصور إلى الدرج ثانية. إنها ذكرى

مؤلمة. لمارك، ولذلك أحفظ به سرا."

وأطاعتها رافينا طاعة عمياء، ولكن الوجوه التي رأتها

في الصور راحت تجول في أعماق عقلها، ويطاردها شبح

سعادتهما، وعندما عادت وواجهت لاتونا قالت لها:

"أرجو أن نكون أصدقاء، أما إذا أصررت على معاملتي

كأنسان غريب..."

فاطمتهما الجدة قائلة بوضوح:

"أنت فعلا غريبة. دخلت المنزل ليلة أمس وكأنك أتيت ضد

رغبتك، هل كنت تأملين أن يعيش حفيدي معك في

بريطانيا."

وأطلقت الجدة ضحكة ازدراء ثم واصلت حديثها:

"أنت تزوجت من سبردي، وجذوره ضاربة في هذه الأرض، وأرضه هي حياته. وتزوج ثانية مثلما يفعل عندما يزرع أرضه من جديد بعد موسم الحصاد، إنه يريد ابنا له."

وأشاحت رافينا بوجهها عندما أحست بالعداوة في عيني الجدة التي راحت تتفحص قوامها النحيل، وقالت لها: "مارك، أحقق، إن أي فتاة في الجزيرة تستطيع أن تمنحه نصف ستة أطفال، إذ يبدو من تصرفاتك كأنك لم ترغبني يوما في أن يلمسك رجل."

وكانت ملاحظة شديدة أيدتها دونا جوكانستا التي رأت جانباً من الحياة فأصبح في وسعها أن تتبين بوضوح نظرة العروس المدلهة بالحب، وقد رأت من رافينا موقف المدافعة متخذة مظهر الانساعة الأسيرة، وكان أفكارها وأتواقها تعيش على حبة أميال. سألتها لانونا:

"هل أنت شقية؟"

بدأت رافينا تسير نحو الباب وهي تقول:

"كيف أكون سعيدة، وأنت تقولين لي أنني أفقد المزايا التي يجب أن تتوفر في الزوجة. لست محبوبة، ولا يرحب أحد بوجودي، ومع ذلك لا أستطيع أن أعد حقيقتي وأرحل في حرية من هذا البيت."

وجذبت الباب تفتحه وأسرعت تهرب من صالونها وانزوت في كهف مارك راقية ألا يعثر عليها أحد. كان موعد تناول طعام الغذاء قد حان، وعثر عليها رينزيو، لكنها تمسكت بالصمت وهي تتناول الطعام مع مارك وجدته. وعندما غادرتهم دونا جوكانستا لتستمتع بالقبيلولة، علمت رافينا من زوجها أن حفل الزفاف قد أعده أهل الضيعة، وسيقام هذه الليلة.

وأشعل مارك سيكارا واستلقى على المقعد، ثم قال:

"هذا الحفل دائماً يقام عندما يتخذ البادرون لنفسه زوجة، سوف تستمتعين به، وسيرقص الشباب رقصة ايطاليا الشعبية... الترنيتيلة. وسترتدي الفتيات ثيابهن القومية، وستنتخب فتاة منهم لتقديم لك هدية."

ومضت رافينا شفتيها، ورأت بعيني

خيالتها وجه دونا العشرق فقالت:

"ولكن يا مارك، هذا معناه أنه لم يسبق لك الزواج من قبل."

لاحظت مظاهر القوة في عينه، وعلى فكه وهو يقول:

"سيقام الحفل وعشيرتي في انتظارني، إنهم يعملون بجد واهتمام وعند حدوث مناسبة سعيدة يهرجون بحماس شديد، وأنت يا سنيورا دي كورزيو ستشعرين بالسعادة وأنت مرتدية أحمل أتوايك."

قالت له:

"هل نسيت أنك أقيمت الماء البارد ليلة الأمس على أحمل ثيابي."

قال:

"أجل... حتى أنقذك من الاحتراق، وأنا أعرف كيف يشعر المرء عندما يلمسه نار الحريق."

قالت:

"مارك، إنني أسفة لأنني أبدو بلهاء في موقفني تجاه الحفل. لم أتوقع إقامته... و... والحديث الذي تبادلته مع لانونا ترك في نفسك شعوراً بالاكتمال."

ومال بجسمه إلى الأمام، وتطلع ملياً إلى وجهها، وكانت رافينا تجلس على وسادة، وذراعاها حول ركبتيها، فبدت صغيرة السن، ووقورة، وأردف يسألها:

"ماذا قالت لك جدتي؟ هيا خبريني."

"هي... حسناً... قالت أنك سوف تتركني في الكازا عندما تقوم برحلات عمل، لي الحق يا مارك... فقاطعها قائلاً:

"هي أن تكوني بصحبتني... أليس كذلك؟"

"أن أرى حاردي عندما تذهب إلى بريطانيا."

قال مارك وهو يعود بظهره إلى الوراء ويرفع يده ليدخن سيكارا:

"مفهوم، ولكنني لن أذهب إلى بريطانيا إلا بعد فترة طويلة."

رحلتي المقبلة ستكون الى روما *

قالت:

* فارك .. هل تدعني أذهب معك؟ *

ولم تكن رافينا تتصور أنها سوف تبقى في هذا المنزل
الغريب المسكون بتلك الفتاة التي تضع طرخة فوق شعرها
الأسود، وضورتها المعلقة في برج المادونا والتي رحب بها
الجميع، وأردفت رافينا قائلة:

* اعتدت أن أتجول بطريقتي الخاصة، ولن أكون مصدر إزعاج،
وسأبتعد عن طريقك عندما تفتقي بالناس لتجري معهم
مخادعات العمل *

ولاح لها أن وقتاً طويلاً انقضى قبل أن يقول لها منهيها:

* طبعاً سأصحبك معي، لأنني إذا تركتك هنا وحدك ربما
تفكرين في الهروب ثانية *

وتساعد دخان سيكاره فاختلط بأشعة الشمس التي كانت
تندفق عبر النوافذ نصف المفتوحة، وكان لون عينيها
السوداوين عميقاً، وكان جانب وجهه غارقاً في الظل، فلم
تجد الأمر هيناً لأن تشكره على وعده لصحبته معها في رحلته
الى روما. إنه يريد بها معه لتظل تحت بصره، ولم تعد تثق في
عدم ثورته إذا ما فكرت في الهروب مرة ثانية.

سألته سريعاً:

* هل زرت روما؟ *

قال:

* أجل *

ونزع بتفكيره الى الماضي، وكأنما كان يتطلع الى الأماكن
التي رآها ويحمل لها أجمل الذكريات، ثم عاد الى الحاضر
ليستطرد قائلاً:

* قضيت شهر العسل هناك *

★ ★ ★ ★

٤- المظبي والجزيرة

زادت ظلمة الليل باختفاء القمر، وازدادت العجوم تألقاً
وبهاءً. وامتلاً المكان بشذى الزهور و رافينا واقفة وحيدة
في الشرفة المطلقة على البحر تستجمع شجاعته لتندو مرحة
في الحفل، فبعد قليل تندفق جحافل الناس الى فناء الدار،
وتضاء المصابيح وتبدأ جوقة الموسيقى في العزف.

ارتدت رافينا ثوباً رائعاً، لم تجرؤ على السؤال عن
صاحبه وإنما وهدته على فراشها في غرفة برج الفارس،
وزاد الثوب من تألق سحر عينيها، وأبرز فتنة وجهها،
وانتظرت في عصبية لحظة يراها هارك، وسمعت وقع
خطواته الهادئة تعبر أرضية الشرفة حتى وقف بجوارها،
وأمسك برسغها وأدارها نحوه لينظر اليها، ولم تنفوه بكلمة
عندما راحت عيناه تتأملان مظهرها في ثوب الجزيرة.

قال:

* كم أنت غائبة، ولكن أرجوك أن تبترسمي. الثوب يخص
جدي، وقد طرأت لي فكرة أنه يناسبك *

وبدت الدهشة في نظرات رافينا وقالت:

* هل تقصد أن لانونا سمحت لي بارتدائه؟ *

تلاأت أسنانه وسط وجهه البرونزي وقال:

* ليست لانونا ... وإنما أقصد جدي السلتية ديلمزا التي
كانت وهي ترتدي هذا الثوب *

حكيت أصابعه عبقها وهو يثبت حوله السلسلة الذهبية التي
تحمل المرصع بالآلي، واستقر على صدرها،

ولمسته رافينا، فأصبت الدماء الذي بقي فيه من
يد مارك.

تفتحت قائلة:

"كم هو جميل ضارب ديمتزا. شكرا لك يا مارك لأنك
سمحت لي بارتدائه هذه الليلة."

"أنا أعطيتك لك."

"ولكن..."

ووضع مارك أصبعه فوق شفثيها ليمتصها من مواصلة
الحديث، وقال:

"لم يرتده أحد سوى ديمتزا، وقد قدمه لها جدي عندما
جاءت الى هنا."

وشعرت رافينا فجأة بالدموع تحرق مآقيها، فقالت:

"مارك... أحيانا تبدو رحيما للغاية..."

وعرفت يداه طريقتهما الى وسطها، وقال لها:

"ولكنني في أغلب الأحيان أبدو قاسيا، اليس كذلك؟ كم أحب
أن تقبليني يا رافينا..."

وقفت رافينا على أطراف أصابع قدميها وكانت تنتعل
خفي ديمتزا الاسودين، وقد زينها بشرائط وردية، ثم حسنت
شفثاها قد مارك غير المشوه، وفجأة شعرت به يتوتر فقد
أدرك أنها لا تستطيع أن تحتل لمس ندويه، لأن التفكير في
لمسها كان يثير الرعب في قلبها.

وأحكم قبضة يديه حول وسطها، فحالت برأسها الى الوراء،
وزادت عيناها الخضراوان اتساعا، عندما مال بوجهه نحو
وجهها وقال لها:

"كان يجب أن يكون الحفل تنكريا، ما رأيك لو أنني عطيت
وجهي؟"

انطلقت من بين شفثيها هزقة قائلة:

"مارك..."

ولكن قاطعها قائلا:

"وجهي يفرغك... كما أفرغ تلك الطفلة التي خرجت من
المدرسة..."

"كفى..."

"أفرغك... ولكنك ستعلمين كيف تعيشين معه مثلي..."
وانسحب، وقد تبت ربطة عنقه، وارتدى سترة سوداء،

وقميصا أبيض اللون، ثم قال:

"تعالى، من الأفضل أن تهبط ليقابلنا الناس الذين وصلوا،
فالحفل أوشك على الابتداء..."

وكان القناء حاشداً بالناس رجالا ونساء، يرتدون أفخر
ثيابهم، يحدوهم المرح والضحك، وبدا حب الاستطلاع في
عيونهم عندما ظهر مارك في القناء بصحبة عروسه الشابة
فصاحوا:

"مرحبا بك في منزلك يا يادرون، هجئنا للاحتفال بالزواج
السعيد..."

وأقبل عدد كبير منهم للتحية رافينا، البعض يضبط على
يدها، والبعض الآخر يقبلها وأحسست أن ابتسامتها تجمدت
على شفثيها إزاء الطريقة المتكلفة التي تنظر بها النسوة
اليها، وأدركت أنها يقمن بمقارنتها بالعروس التي سيقفها
ووقفت الى جوار مارك. كانت دوناتا واحدة منهن مشرقة
ذات وشاح يكتو شعرها الأسود مثل لون بشرة مارك، أما
هي فشعرها أحمر اللون، وبشرتها شاحبة.

شعرت رافينا بالتوتر وودت أن تبكي. وأحسست بالمهانة
من الصورة التي تعرض بها على الجميع، ولكن سرعان ما
زائلتها هذه المحنة عندما أقبل الخدم يحملون اللحم الذي
تنبعث منه رائحة الشواء، والخبز، وأطباق المعكرونة،
والزيتون، والجبن، والطماطم، والفواكه، وقناني الشراب
الأحمر والأبيض، وملئت الكؤوس وشرب الجميع نخب
اليادرون وعروسه، وهم يرددون قائلين:

وأجبرت رافينا أن تجلس بجوار دونا جوكاستا، وعدد
من صديقاتها وانهلن عليها بالأسئلة العديدة،
وكانت لانونا تقوم بترجمة فحواها لرافينا التي
أجابت عنها أفضل إجابة، وكم كانت سعادتها عندما بدأت
رقصة الترانتيلا.

لم تشاهد رافينا الرقصة من قبل، وشعرت بعد لحظة

بسرورها وخاصة بعدما بدأ الرجال يتسللون الى داخل الحلقة التي عقدها بعضهم، وسرعة الموسيقى تسارع في وقعها، وبدأت الفتيات في نداء أسماء الشبان الذين يعجبين بهم. وكانت فتاة فاتنة تقف بالقرب من رافينا عندما التقطت زهرة من شعرها، وألقت بها الى راقص خبير في الرقصة، فأمسك بالزهرة ووضعها بين أسنانه البيضاء، وترددت ضحكات لم يسبق لرافينا أن سمعتها. كانت ضحكات أناس يشتغلون بجد واهتمام، ويلعبون بحاسة شديدة وتجري في عروقهم حرارة الشمس الساخنة، والرياح العاتية، وجمال الجزيرة المتوحش.

وعندما انتهت الرقصة بدأ الراقصون يربطون حلوقهم باختساء الشراب بينما كان عازف غيتار يشدو بأغنية عاطفية، وكانت رافينا تراقب كل ما يجري قرأت مارك يتحدث الى بعض رجاله... ربما كانوا هم هؤلاء الذين سارعوا الى إطفاء السنة الحريق التي كانت امتدت اليه.

كانت رافينا تحاول أن تتواري في الظلال، بينما كان مارك يدور بنظراته بحثا عنها، وكشف المصباح عن الصرامة التي ارتسمت على ملامح وجهه. قال له أحد الرجال بصوت عال:

"بادرون، يجب أن نذهب لصيد السمك عندما يحين الوقت. أه... يجب أن نصطاد بالرمح حوتا رهيبا".

قال رجل آخر ضاحكا:

"الرجل صياد وعليه أن يجد فريسته".

لطم الرجل الأول ظهر الرجل الآخر وقال:

"أنت تتكلم عن النساء، وتقارن بين صيدهن وصيد السمك. إن صيد النساء أفضل رياضة للرجال، لأنه في الحقيقة ليس من السهل ترويضهن. ما قولك يا بادرون في أن المرأة الأليفة أشبه بالمعكرونة الخالية من الصلصة".

أجاب مارك وهو يبحث بعينية عن رافينا:

"المرأة التي لا تتحاجر معها تمنها يقل. إنها تحتل قلب الحياة... وحيثما توجد الحياة فلا بد من نشوب المعركة".

ضحك الرجال وراحت عيونهم تتفحص النساء في ثيابهن الملونة، وكانت هالة من الكبرياء والصرخة تحيط بهن، دون أدنى لمحة من خضوع في سلوكهن. وتقدمت فتاة فازاحت الوشاح الذي يغطي رأس رافينا، وحررت أصابعها فوق وجنتها وهي تنتم:

"سيدتي العاشقة".

وكشف صوت الغناء المرتعش عن المكان الذي اختبأت فيه رافينا، فاضطرت هذه أن تتسلل من مخبئها، وتقف في دائرة ضوء المصباح، وفي الحال رآها مارك، وعندما اقترب منها أصبت أنفاسه تلفح عنقها. وكان طويلا، أسمر اللون، يحدق فيها بنظرة تنبئ الجميع بأنها ملك له.

سألها بصوت ساخر:

"هل استمتعت بالحفل؟ كما ترين، الرجال يرقصون مع زوجاتهم، وسيبدو الأمر غريبا لو أننا لم ننضم اليهم في رقصهم".

وجذبها الى حلبة الرقص، وكانت الرقصة لا تعدو أن تكون خطوتين بسيطتين ولكن رافينا كانت تتعثر في رقصها، وفجأة أطبقت أصابع مارك على وسطها، وهمس في أذنها بقسوة:

"هل تكرهين لمسة يدي كثيرا؟"

وضغطت وجنته على وشاحها الذي يغطي شعرها، وبدت همسسته أمام الجميع أنه محب لها وله بها، فأغمضت رافينا عينيها حتى لا ترى المصاييح، والمرح الذي ارتسم على وجهه، وقالت:

"إنني أحاول يا مارك أن أبذل عروسي سعيدة في الحفل. إنها لا تكاد تكون غلظتي إذا لم يستطع قلبي مشاركتهم".

وتوقفت الموسيقى عن العزف، وخانت اللحظة التي يقدم فيها الناس للبادرونسيتا هدية الحظ السعيد هؤلاء الناس الذين تواقدوا يحدوهم حب الاستطلاع لرؤية عروس البادرون، ويشعرون بالشفقة نحو هذا الرجل الذي قاسى كثيرا من مأساته، وهو الآن يعيد بناء حياته مع عروس جديدة شابة. تجمع الناس حول العروسين، وتقدمت فتاة تقوهر ببعض

الكلمات الخجلة، وقدمت لها هدية غير مألوفة، وكانت الهدية
طبييا منقطعا، يعيون واسعة وسيقان طويلة، وكان
دور رافينا أن تقوم على رعايته وتدليله، ربت مارك على
أذني الطبي وقال مبتسما:
"من أين حصلت عليه؟"

تقدم أحد الفلاحين وانحنى أمام رافينا .. وقال:
"ابني الملاح أتى به من رحلة بحرية كان يقوم بها، سيدي
البادرون .. زوجتك يبدو على وجهها تعبيرات ذات معنى
والطبي يجب أن يكون ملكا لها .."

هز حديثه مشاعر رافينا وقالت له:
"أشكر .. أخبرهم يا مارك كم أنا ممتنة بهديتهم .."
مسست يده كتفها، وأحست بالدفء يسري خلال بلوزتها
العريضة، فقال لها:

"إنه في وسعهم أن يشعروا بسرورك ... يا عزيزتي .."

قالت:

"ألف شكر .."

وانفرجت شفاتها عن ابتسامة وقورة، وكانت عيناها
مختلطين بالدموع بينما تشعان الشعور بالامتنان والخجل لأنها
استطاعت أن تعقد صداقتها مع أهل سردينيا الذين يتصفون
بالطيبة.

وكان الوقت يشير إلى منتصف الليل عندما بدأت الجموع
تستقل عرباتها أو تمتطي دوابها، عائدة إلى ديارها. وكانت
تصيح وهي تودع العروسين قائلة:

"وداعا ليلة طيبة!"

"حفلا سعيدا .."

وبدا وقع الحواقر يخفت تدريجيا، وهي تبتعد عن المنزل،
وأطفئت المصابيح واحدا تلو الآخر. ووجد البادرون وعروسه
نفسيهما وحيدين في قناء الدار. واستند مارك إلى شجرة
سرو، وراحت عيناها تلاحظان الطريقة التي يقبع بها الطبي
على ذراع رافينا وكأنه طفل صغير. فقال لها:

"يبهجك هذا الطبي الوليد ... أليس كذلك؟"

قالت:

"لم أمتلك شيئا يبهجني مثل هذا الطبي، وانني أشكر في
اختيار اسم يناسبه وأفضل أن أطلق عليه اسم بامبو. إذا لم
يكن هذا الاسم شيئا .."

قال مارك بكسل:

"يبدوها اسم غريبا. علينا أن نجد له مأوى في الأسطبل ..
هناك يمكن أن يعقد صداقة مع مهر يتيم .."

حمل الطبي ووضعاه إلى جوار المهر الذي أجفل وصهل،
وأراد مارك أن يهديه من روعه، فربت عليه بيده، وسطح
الشعر من مصباح معلق، فكتف عن الندوب التي بدت واضحة
على يديه. وتطلع إليها مارك فرأها تحديق في هذه العلامات
الرهيبية، وأدرك أنها أثارته، وتطلعت عيناها إلى عينيده،
فتأهلت فيهما رغبة متأججة، فقال لها:

"هل تحبين ركوب الخيل؟"

"أجل .. قليلا .."

قال:

"غدا ستمتطين جوادا معي لتقوم بجولة سوية، أما الليلة .."

وصمت قليلا .. ثم واصل حديثه:

"أما الليلة .. فسوف تتعلمين كيف تعيشين مع وجهي ولمسة
يدي التي قد تحرق جسمك .."

وقبل أن تشرع في التحرك، لف ذراعيه حول وسطها،
وبدأت خطواته تقادر الأسطبل، وهو يحملها ليمر من تحت
اليهو المؤدي إلى المنزل الفارق في الصمت.

والآن أصبحا وحيدين تماما، بعدما انتهت الحفلة،
وشعرت رافينا بضربات قلب مارك تدق وهو يرتقي
درجات السلم ليصل بها إلى برج الفارس. كانت يداه قويتين
وهما ممسكتان بها وشعرت أنه ليس هناك أي سبيل للهرب
منهما.

وأخيرا وصلا إلى باب دفعه بقدمه فانفتح، وكانت القناديل
المعلقة بجوار الفراش مضاءة، وتلقي بظلالها المتوهجة على
الأغطية المطرزة التي تكتو السرير الكبير، وتطلعت ببصرها
إلى الفراش ثم إلى الوسادتين عندما أنزلها مارك عن
ذراعيه لتقف على قدميها.

ترنحت رافينا من جراء المرح الذي استلذت به،
وشراب الجنوب الذي انتشيت به، ولآله حملها على ذراعية الى
غرفة العروس بحقد لا يخطيء معناه، ولم تشعر الا ويدها
تحسك ياخذ أعمدة السرير، وتاجها الأحمر يهوي من فوق
رأسها، ووشاحها يتهدل فوق كتفها، وشخصت ببصرها
نحو مارك فامتلات عيناها بالخوف من هذا الغريب الأسمر
الذي يعد زوجها .. وهو ينظر اليها بعينين سوداوين تحترقان
بهب مكبوت. قال لها بهدوء:

"لم يكن من شروط الاتفاق أن تعيش منفصلين، أنت تعرفين
بتوده قبل زواجنا، ولابد أنك أدركت معنى كل كلمة من
كلماتي. إنني أريد زوجة .."

وابيضت أصابع يدها وهي تقبض على عمود السرير، ثم
قالت:

"لكي أنجب لك ولدا .. أه أجل .. أعرف الشروط يا مارك،
ولم يراودني الأمل يوما بأنك سوف تعدل عنها، بل لم أتوقع
ذلك منك .."

"هل كنت تتوقعين أن تجدي عاشقا؟"

واجهت عينيها وهي تقول:

"طبعا .. أنا لست طفلة يا مارك. أنا أعرف أن في وسع
الرجال الشعور بالرغبة دون الإحساس بالحب .."

سألها:

"أي رجل علمك هذا؟"

أجابت:

"المرأة تعرف أشياء كثيرة من دون حاجة الى أن تتعلمها .."
وتركت شعرها يتهدل حتى وصل الى مستوى قلبها بينما
كان مارك يخطو خطوة كبيرة نحوها ويقبض على راسها،
ثم يقول لها:

"هل تظنين أنني لا أعرف أنك تشيرين بذلك الى رودري
برينين، وأنت ما زلت تهتمين به حتى الآن؟"

سألته:

"وكيف لي أن أقول إنني لا أشعر بشيء؟ كيف لي أن أنسى
السنوات السعيدة؟"

فاشتدت قبضة مارك على راسها وكأنه يبغى تحطيم
عظامها، فنظرت اليه ورات في عينيها صورة لكل ما فعله
به رودري الذي يماطرها أسعد أيام الطفولة وسنوات
المراهقة، وحفلات الرقص التي دعاها اليها، وهو يتألق في
زيه العسكري .. ولكنه كان يبدو لها ضعيفا في حين
ترى مارك قويا لا تنتني قناته.

قالت له:

"إننا نحكم على الناس من زاوية شخصية بحتة، فأنت
تكره رودري، وأنا أدرك .."

فقاطعها مارك قائلا:

"أنا لا أفهم كيف يمكن أن تحبيه؟"

وتوقف قليلا عن الحديث قرأت وجهه كالثوب الأبيض،
وعينيها الغاضبتين تعكسان نظرة ألم، ثم أردف يقول:

"كلما نظرت اليك أرى برينين في عينيك، وكلما اختلينا
سويا أراه يشاركنا الغرفة .."

فقالت له:

"لأنك تحاول دائما أن تذكر اسمه في حديثنا. هل من المهم
عليك أن تبدو قاسيا هكذا يا مارك؟ ألا تظن
أن رودري قاسي هو الآخر الشيء الكثير؟"

"إنني أتوقع أن يصحو ضميره - هل عاد الى انكلترا لأن
ضميره دأب على مطاردته، ورأى أن يغرق ذوي الحادثة بين
ذراعيك؟"

صمت مارك، وعندما اقترب منها سطع ضوء المصباح فوق
صفحة وجهه ثم أردف يقول:

"هذه الليلة سوف تنسين رودري، سوف تنسين كل انسان
في الوجود، الا أنا .."

أنصتت رافينا اليه ولم تستطع أن تتفوه بكلمة، وكان
الصمت مطبقا وهي واقفة تنظلم اليه، وإلى عينيها السوداوين،
كسواد الليل الذي غاب فيه القمر، وأحاط المنزل في كنفه،
وكان البحر هائلا، وأشجار السرو ساكنة، والسنة الغضب
والألم تتوهج في عينيها.

وأخيرا .. قالت شيئا .. هل تفوهت باسمه؟ .. كل ما تعرفه

أن الأرض اختفت من تحت قدميها عندما حملها على ذراعيه،
وأخفى الندوب في لهب شعرها الداكن.

هل كان مارك صادقا عندما أخبرها في اليوم التالي
بوجود بعض المشكلات في أحد مصانع الموانع وضرورة ذهابه
إلى هناك لحلها؟ لم تستطع رافينا أن تقرأ شيئا في
عينيه بعد أن استيقظت من نومها، واكتشفت وجوده
بجوارها، وشعرها الأحمر ملفوف حول عنقها.

رحل مارك قبل الظهر، وفي المساء وصلت رسالة
تخبرها بأنه سوف يتعيب يومين أو ثلاثة،
وأرخت رافينا عينيهما وهي تتناول طعام الغداء
مع جوكاستا حتى لا ترى مدى الارتياح الذي غمرها
لغياب مارك. إنه ارتياح يبعث على الاسترخاء للتخلص من
التوتر المستمر الذي يشيره وجود مارك، وفي وسعها الآن أن
تستكشف الشاطئ الذي يقع تحت المنزل. الحياة تدعوها إلى
الارتقاء في أحضانها و رافينا تعشق البحر وخاصة أنها
سباحة ماهرة. وكما كانت جمجمة تلك العطلات التي أمضتها
على الشاطئ بصحبة جاردي و رودري.

حاولت أن تسدل الستار لمنع عقلها من التفكير
في رودري، ولكنه كان يقنحم دائما خلوتها بطريقة تجعلها
تحس بأنه يفكر هو الآخر فيها، فتنهدت وأحسست أن دوتا
جوكاستا تراقبها بخدة وسألتها:

"هل تفتقدين وجوده؟"

فتطلعت رافينا إليها، ووجدت عينيهما مسلطتين عليها:

"هل تقصدين مارك؟"

"ماركوس؟ أجل! ومن سواه؟ هل هناك شخص آخر غير زوجك
تفكرين فيه؟"

واكتنف سؤالها شك حاد فقد كانت رافينا تعرف أن
الجدة ستراقب حركاتها طوال فترة غياب حفيدها وربما طلب
منها أن تراقبها عن كثب. قالت رافينا بحرص:

"أشعر بحنين للوطن. هذا كل ما في الأمر. كل إنسان ما
عدا مارك يعد غريبا علي، وغدا سأعتاد على بيتي
الجديد."

توجهت جوكاستا:

"إنني أدير هذا المنزل منذ فانت دونات. ولن يطول بك
الزمن حتى تكوني قد تسلمت مفاتيحه مني."

قالت رافينا بتأكيد واضح:

"أنا... أنا لا أريد المفاتيح. أسي سعيدة بأن أدع لك تدبير
أمر الكازا. إنني لا أريد أن أقلب وضع الأمور أو تغييرها."

سالت الجدة العجوز:

"لماذا؟ لأنك لا تحاولين الاهتمام به؟"

وكان هذا الرأي قريبا من الحقيقة،
وكانت رافينا سعيدة عندما تحولت لتناول قطعة من الكعك
المغطى بالكريم، وبعد الغداء استأذنت من دوتا
جوكاستا في الانصراف للقيام بكتابة بعض الرسائل،
وبعدما استجوبت أعماليها بكتابة رسالة
إلى جاردي تخبره فيها عن سعادتها في المنزل الذي
تحيط به أشجار السرو، ووصفت له الحقل الذي أقيم احتفالا
برفاقها، والقرية التي تقع فوق التل...

ثم راحت تكتب رسالة إلى رودري، ولكنها ما كادت
السطور تبلغ منتصفها حتى كورت الخطاب في قبضة يدها
والقته في نار المدفأة، فقد رأت أنه لم يعد لديها شيء
تضيفه إلى ما قالت له في يوم رفاقها، فهي تعرف تماما أن
سلامة صحة جاردي تتوقف أساسا على السرية التامة لكل
ما حدث، وإذا اعترف رودري لأبيه بأنه قتل ابن مارك،
فمن المحتمل أن النبأ سيؤدي إلى قتل جاردي.

وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى مكتب بريد القرية
لتبعث برسالتها ثم اتخذت طريقها على الدرب المؤدي إلى
ساحل البحر، وعندما بلغت الشاطئ، وجدتته مهجورا
فتخلصت من حقها، وحزت إلى الأمواج المتكسرة لتستمتع
ببرودة الماء فشعرت بالهدوء والطأنينة، وفجأة قطع عليها
خلوتها صوت نباح كلب صغير، ميلل بالماء، أخذ يتسلل من
بين الصخور ليقترب منها، ويقف أمامها ساكتا، مشدوها
مثلا، وتحول نباحه إلى هدير قصير. قالت له:

"حسنا، أنا لست أخشاك، وأنت بالتأكيد لا حاجة بك إلى أن

تخشاني .

وهعد الهرير، وبدأ الكلب يتقدم منها وهو يهر ذيله . كان كثيف الشعر، تتهدل خصلات منه فوق عينيه . شكله يدعو الى الضحك وهو مبتل، وهذا النوع من الكلاب تحبه رافينا أشد الحب . سألتها :

"من أين أتيت؟"

ومدت له يدا حانية، فأحتى رأسه، وأخرج لسانه ليلعق يدها، بينما راح ذيله يتأرجع بقوة، وفجأة سمعت رافينا صوتا ينادي :

"تيو!"

كان الصوت أتيا من وراء الصخور، فتطلعت في اتجاهه، ورات رجلا ينسل من بين الصخور، عاري القدمين، شعره مجعد، تحيل القوام، يرتدي سروالا ضيقا أزرق اللون، تعرضت أكثر أجزائه للبلل، وقميصا أبيض اللون وصلت فتحة الصدر الى وسطه، وتراقص مدالية على صدره النبي العاري . واستطاعت نظرتها الجريئة أن تلتقط كل صغيرة وكبيرة من مظهر رافينا، ثم استقرت أخيرا على شعرها الذي استحال لهيبا عندما سقطت عليه أشعة الشمس، وراحت الريح تعبت بخصلات فوق كتفها .

قال الشاب وهو يقترب منها، وقد انفرجت شفتاه عن صفين من الاسنان البيضاء :

"عثرت على صديق لك يا تيو . . ليس كذلك؟"

صمت قليلا ثم قال بالاطيالية: "صباح الخير يا سنيورينا ."
.. ثم أردف يقول بالانجليزية وكأنه يعرف شخصية من يحدنها :

"كيف للانسان أن يعرف مبلغ سعادته في هذا الصباح عندما يحتر على صديق فوق رمال الشاطئ؟"

تأملته رافينا مليا، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أنها رآته في حفل الأمس . كان لديه ذلك النوع من النظرات التي لا يستطيع المرء نسيانها . وتقدم منها وانحنى الخنائة خفيفة وقال :

"يجب أن أقدم نفسي لك، أنا ستيانو فابريزي . لا أدري إن

كنت قد سمعت علي أم لم تسمعي، إنني يا سنيورا، رسام !"
وهي الحال تفكرت رافينا الاسم ولكنها شعرت بعينية تدغدغانها حين تحدثت لتقول له :

"هل تقوم بطلاء البيوت يا سنيور؟ إنه عمل مثير . أظن أن بيوت البحر الأبيض التي طليت بالألوان أصبحت شيئا قريدا، إذ أنها تنسجم جيدا مع أشعة الشمس والبحر ."
ضحك الرسام بفرح وقال :

"من الغرور أن ادعى بأنني أحظى بشهرة كبيرة . أنت العروس الجديدة وسوف تنسجمين بدورك مع أشعة الشمس والبحر، وكان قلبي أن تكوني شقراء باردة ذات نظرة نافذة ومفارقة ."

قالت بهدوء :

"إنني أسفة أن أخيب تقديرك، يا سنيور فابريزي ."

قال وعيناه تأسران عينيهما :

"لم يخب قلبي بل أعتبر نفسي سعيد الحظ لأن أجد فيك الشخص الجدير برسمه . إن صور عرائس أسرة دي كورزيو رسمها مشاهير الفنانين، وعندما سمعت أن مارك دي كورزيو قد تزوج ثانية، قررت أن آتي، وألقي نظرة على عروسته ."

قالت لتسأله :

"أوافق أنت أن زوجي سوف يختارك لرسم صورتي؟"

رأت رافينا فيه الجراءة والشجاعة، وأحست أنه من السهل عليها مكايده، وهو في ذلك يختلف عن مارك الذي يهوج عامل الخوف دائما في أعماقه، ويدرك تماما أنه متحجر القلب، وتبدو قساوته على وجهه، وانتشلتها الرسام من تفكيرها حينما قال :

"مارك دي كورزيو رجل مشهور، وحيث أنني أقيم في فيلا صغيرة تقع على الساحل الزمردى، فإنه سوف يستدعيني لرسم صورة زيتية لعروسته البريطانية ."

"أنا من مقاطعة ويلز يا سنيور ."

وجال ببصره نحوها متفحصا فتشاهد شعرها الأحمر، وعينيهما الخضراوين، وشموخها وهي تقف بين الأمواج

المتكسرة، والزيد المتطاير يثائر خلف شعرها .

قال لها متمهلا:

"أجل، أرى فيك سحرا أخاذا، ومن دواعي السرور أن أرسلك يا سنيورادي كورزيو".

قالت:

"إنني أفترض جدلا أن مارك سوف يستدعيك لرسمي".

قال الرسام بصوت يشوب الكبرياء ببرقه:

"لا أنتظر عودة زوجك حتى أسأله القيام برسم صورة لك، فقد اعتدت ألا أستأذنه عندما يعجبني منظر طبيعي أخاذ يدفعني إلى رسمه". فما بالك عندما أرى امرأة جميلة؟

"أكاد أكون جميلة يا سنيور".

قال مبتسما:

"أذن دعينا نقول أنك فائنة، مثيرة، ما رأيك في سرديتيا؟ هذه الجزيرة التي نطلق عليها نحن الايطاليين هذا الاسم. إنها تشبه الخف".

أجابت:

"إنني أجدها جذابة، نقية من كل فساد، ولو كنت فنانة لتوقعت ألا أقاوم اغراءات الجمال".

قال:

"عزوس لا تقاوم الاغراءات".

وتطلع إليها ستيليو فابريزي بنظرة يشوبها حب الاستطلاع، نظرة دفعتها إلى البحث عن خفيها الذي تركته في منتصف الشاطئ، فقامت لاحضاره. وعندما سار إلى جوارها رأت فيه رجلا قوي البنيان ولكنه ليس في طول مارك، وفي لحظة تجسدت فيه صورة رودري وهو يسير إلى جوارها. وأخيرا قال لها ستيليو:

"حلقة الصندل التي يتعلق بها أصبع القدم، هل هي مؤلمة؟"

ولوهلة لم تستطع رافينا أن تدرك المعنى الذي يعنيه، ثم عرفت أنه يشير بطريقة مهذبة إلى الحياة في الجزيرة، وإلى كونها عروسا لرجل مثل مارك، فتألمت عيناها ببريق أخضر عندما غمرت أشعة الشمس فتوتر الفنان وهو يتطلع إليها. قالت له:

"إذا سألتني يا سنيور إذا كنت أشعر بالراحة في الكازا فإنني سأجيب عليك بأن الأمر سيستغرق من المرة بعض الوقت حتى يحس بالاستقرار في وطن غريب". فقال متعمدا:

"لديك عينان جميلتان يا سنيورا، ولكنني لا أرى أي نجوم فيهما".

سأله:

"هل تبحث عنها في وضع النهار؟" يا سنيور.

خيم الصمت عليهما. ثم قال:

"يجب أن تشاركيني طعام الغذاء، لدي زورق صغير في المياه وراء الصخور، ولدي سلة وضعت فيها مديرة منزلي ألوانا مختلفة من الطعام. هل ترغبين في مشاركتي؟"

تطلع بصرها إلى لسان الأرض الداخل في البحر حيث برز جناح من السكازا، وفكرت رافينا أن دونا جوكاستا تتوقع عودتها لتناول طعام الغذاء معها في الصالون، وسوف تسألها عن المكان الذي قضت فيه كل فترة الصباح، وعن الشخص الذي أمضت معه كل هذا الوقت، ولذا وجدت من الصعوبة أن تليي دعوته لتناول الطعام معه ومع كلبه، لذلك قالت له:

"شكرا. حقا اني جائعة، ولكن عبور الطريق إلى الكازا يحتاج إلى وقت".

صوب الرسام بصره إلى المنزل ورأى ستارات النوافذ مسدلة تحول دون دخول شمس الظهيرة إلى غرفة، والشرفة المطلة على البحر تبرز فوق الزبوات، ويبدو أن للمنزل مظهرا متيعا ومنعزلا، وكأنه شيد ليبعد عنه أي طارئ غريب. تمتم ستيليو قائلا:

"لن يضيق زوجك إذا ما شاركته طعام الغذاء".

قالت:

"مارك في رحلة عمل".

"فهمت... ترك عروسه ليلهو قليلا... ما رأيك؟"

قالت:

"لا أشعر بأي ضيق. مارك لن يدع عمله ينحدر إلى الحضيض

بسببي*.

وكثر ستيليو على أسنانه وهو يقول:

"يا إلهي... لو كان زوجك إيطاليا لن يدعك وحدك هكذا. بل سيقضي حياته بصحبتك. لا يقارئك ليل نهاراً".

قالت:

"ما أرهب هذا وأشبهه بالحجر الانفرادي، إنه السجن*."

قال ستيليو: وكان صوته اللاتيني يربت بحنان على كلماته:
"إنك سجين الحب. لا يسع الرجل العاشق إلا أن يقول: إذا لم يكن عندي شيء غير ياقة من الورد فلنني سوف أقاسمك إياها!."

"أنت شاعر يا سنيور فابريزي، ولكنك بالكاد تتلاءم مع متطلبات الحياة اليومية. أنا أفضل أن يقتسم الرجل طعامه معي. إني جائعة*."

قال لها مؤنبا:

"أنت تقولين عبارات تكاد تتفق مع لهيب شعرك، والجواهر التي تتلألأ في عينيك*."

"إن الشعر يقبض إذا ألقي على مسامع امرأة جائعة. هل لديك قهوة في سلتك؟"

قدم لها يده وهو يقول:

"دعينا نذهب وسوف ترين*."

تسلقا الصخور، وبلغا خليجا أرسى فيه ستيليو زورقا صغيرا في مؤخرته محرك فنقل من الزورق سلة الطعام، وتحت شجرة وارفة الظلال جلسا لتناولهما وكان يتكون من السجق والخبز والجبن والزيتون وشرائح الليمون. وبعدما فرغا من الأكل احتسبا القهوة المكثفة، وانتابهما شعور بالتخمة فطلبا الراحة، وكان الجو باردا حولهما، بينما كانت أشعة الشمس تبعث الحرارة خارج الرقعة التي جلسا فيها.

قال لها فابريزي:

"يجب أن تتيحي لي الفرصة لرسم صورة لك يا رافينا*."
"يجب أن أستشير مارك في ذلك يا سنيور. لأنه تحدث معي بصدق رسم صورة لي، لكنني لم أكن شغوفة بالفكرة*."
ومال عليها ستيليو يتفكرس وجهها ثم سألها:

"ولم لا؟ هل أنت خائفة من فنان فطن سوف يرى أشياء في عينيك تكشف عن امرأة غير سعيدة البتة؟"

دقنت أصابعها في الرمل الناعم، وودت أن تقول له انها سعيدة تماما ولكن ستيليو راح يربت على يدها. كان طيب القلب متفهما لعواطف الآخرين. ويدرك أن الشقاء جزء من الحياة مما يجعل الناس موضع الاهتمام. وخاصة بالنسبة اليه كفنان. قال لها:

"إن الجو يكون أكثر برودة فوق سطح الماء. دعيني أصحبك بزورقي في رحلة بحرية. إن زوجك غائب عنك*."

سحبت يدها من تحت يده وقالت:

"وهل تظن أن الفأر من حقه أن يلعب في غياب القط؟"

ضحك ستيليو وبصره حبوب نحو شعرها الأحمر، وقال:

"رافينا إنك لست فأرا. إنك تشبهين لوحة للرسم تيتيان حيث تعكس العيان الحيوية والفجل. أنت تختلفين تماما عن دوناتا*."

سألته:

"هل كنت تعرفها؟"

شعرت رافينا بأنفاسها تتلاحق وهي تسأله عنها إذ سرعان ما تتمثل أمام عينيها صورة المرأة التي أحبها مارك عندما يبدأ أي شخص الحديث عنها.

أجاب فابريزي:

"التقيت بها في صوبة مارك في روما، ولم يكن قد مضى على زواجهما فترة طويلة، ورسم صديق لي صورتها في رسمه. كانت مخلوقا جذابا ذات عيني داكنتين، وقم كالزهرة المتفتحة. وأخبرني صديقي الفنان أنه كان مأخوذا بها عندما رسمها، لأنها تدعوك إلى حيها وهي تعيش قصة حب*."

خففت رافينا عينيها وكأنها ترى بوضوح اسماع جمال دوناتا.

فسألته:

"ما هو الانطباع الذي تركه مارك عليك في ذلك الوقت؟"
قال ستيليو عن عمد:

كان في صورة رجل له معاية رومانية، وهو جالس في
مرسم أرنو، كان يدخن، وعيناه تشعان الرضا وهو يراقب
الليعات الأخيرة التي يضعها الفنان في صورة دوناتا.
أتذكر أنه وزوجته كانا ينهمان بكل شيء يرغبان فيه.
الجمال، الثروة، الحب، ولم أشاهد أي ظلال للشقاء في
عينيهما أو بادرة تشير إلى أنه وزوجته سيواجهان مأساة في
ذلك اليوم.

نهضت رافينا واقفة على قدميهما، وراحت تنفض الرمل
العالق بثوبها القطني وقالت:
"بربك، لا تقل المزيد عنها، خذني في الرحلة البحرية،
أرجوك."

وقطعا شوطا في عرض البحر حتى وصلا إلى إحدى الجزر
الصغيرة، حيث يوجد كهف يمكن للزورق أن يتدفع خلاله،
وكانت المياه تحت الزورق صافية وورقاء، يمكن من خلالها
رؤية الأسماك وهي تقفز كالسهام.

ابتسم ستيليو وقال:
"هنا يجب أن أرسم صورتك، وأنت جالسة على الصخر مثل
حورية تشدو بأغنية."
قالت وهي تعبت بأصابعها في الماء:

"من المفروض أن أشدو بأغنية من أغنيات ويلز."
وعندما بدأت تغني ترددت أصدااء الأغنية بين جنبات
الكهف، مما أثار الكلب تيو، وراح يلبح نباحا أشبه بنحيب
جنينة إيرلندا التي فقدت عزيزا لديها،
فانفجر ستيليو ضاحكا، وبدأ يدير المحرك، ويتجه ثانية
بالزورق إلى عرض البحر، وكانت الشمس قد بدأت في الخفيم
عندما ألقى الزورق مرساه تحت المنزل، واشتعلت الشمس
بلهب قرمزي ألقى ظلاله على البحر، وأخذت سحب الصيف
تستكين في الأفق، وعندما تطلعت رافينا إلى مغييب
الشمس أدركت عدد الساعات التي أمضتها غائبة عن الكازا.

قال لها ستيليو وهو قابع في زورقه:
"أحب أن أبدا عدا رسم الخطوط الأولى لصورتك."
وقفت على الشاطئ، تلوح له بيدها، وترسم على شفثيها

ابتسامة وهي تقول له:

"لن أستطيع، يجب أن أستاذن مارك أولا."
سألها ستيليو باخرا:

"هل تخضعين دائما لأوامر زوجك؟"

بدأ الجو يحيل إلى البرودة، والسحب تلقي وشاحها على
الشمس الغاربة، وكانت رافينا تذكر أن الكأسية
والانتفاض قد يأتيان مع ختام الحفل، قالت له:

"أنت لا تعرف أن مارك لم يعد الشخص الذي التقيت به
في روما، إن من الكياسة أن تتحدث معه أولا."
يا ستيليو.
قال لها:

"سأقتل لطلبك يا رافينا، الوداع."

"وداعا يا ستيليو، وداعا يا تيو."

وتردد نباح تيو عبر الماء، بينما أخذ صوت المحرك
يخفت تدريجيا عندما أخذ الزورق يبتعد عن الشاطئ، وأخيرا
خيم صمت، ولكنه صمت لن يطول أمده فبعد لحظات سوف
يبدأ المد وتبتلاطم الأمواج فوق السطح،
فأدارت رافينا ظهرها للبحر، واتخذت سبلها إلى المنزل،
وأرضى الليل سدوله، فأضيئت مصابيح باب الفناء، ودلفت إلى
المنزل على أمل أن تتجنب لقاء دونا جوكاستا، ولكن السيدة
العجوز كانت تجلس على مقعدها بجوار المدفأة، وقدمها
الصغيرتان تستريحان فوق المقعد الصغير، وعيناها الحادتان
تتطلعان إلى عقارب الساعة التي تشير إلى الوقت الذي عادت
فيه العروس الهاربة.

سألتها:

"أين كنت طوال اليوم؟"

أجابت:

"على الشاطئ."

كانت رافينا تقف وسط الصالة يقواجهها النحيل، وشعرها
المشعث، وثوبها الفضن، وذرات الرمل عالقة بأطرافه،
وأحسست أنها صغيرة أمام الجدة، فراودتها الرغبة في الفرار،
ولكن هروبها كان يدينها بارتكاب جريمة، وهي لا تشعر بأي

جرم في تحضية الساعات بصحبة ستيليو هابريزي، فقد
ساعدتها على أن تخفف من ألم بعادها عن وطنها، وهي ممثلة
له.

قالت الجدة:

"بانتيسا قالت أنك في صحة رجل، أرسلتها للبحث عنك،
ما قولك؟"

قالت رافينا بصوت يشوبه التحدي:

"بانتيسا تنتمتع بحدة البصر، التفتيت على الشاطئ،
بصديق لمارك هو سنيور هابريزي."

التقطت دونا جوكاستا أنفاسها وقالت متسائلة:

"القنان؟"

أجابت رافينا:

"أجل."

"كل الفنانين مرحون ولكنهم أشرار، ومع ذلك أمضيت اليوم
كله معه؟"

قالت رافينا:

"أغلب اليوم... وبصحية كليه!"

ثم اتجهت لترتقي درجات السلم وهي تقول:

"إنني متسخة، وأرغب في الاستحمام."

قالت السيدة العجوز:

"لحظة أرجوك..."

فاستدارت رافينا طائفة:

"لن ترى هذا الرجل مرة أخرى... إنني أصنعك."

قالت رافينا وقد شاب الغضب صوتها:

"أنا لست طفلة يا دونا جوكاستا، ليس في وسعك أن
تجمعيني من إقامة أية صداقة مع أحد، أو تنصبي نفسك تينا
علي لمجرد أن مارك غائب عن البيت عدة أيام، إنني لن
أنصاع لأمرك."

"ماركوس تركك في رعايتي."

"هل طلب منك حبسي في البرج، وأن يقتصر طعامي على
قطعة خبز وماء؟ حسنا، لن أنوي أن أكون سجين في هذا
البيت المظلم، سأتوجه غدا إلى الشاطئ، وأرجو أن أحد

سنيور هابريزي هناك، إنه يصدق دائما يا سنيورا، إنه
يمتليء بالحياة ويتطلع إلى المستقبل، ولا يعيش في الماضي
كل وقته.

وأخذت رافينا ترتقي الدرجات بسرعة، وعبرت البهو
إلى القسحة المؤدية إلى برج الفارس، حيث كانت وجنتاها
ساخنتين، وقلبيها يدق دقات متلاحقة، وشعرت أنها
تكره مارك لأنه أصدر أوامره للتجسس عليها كما تكره هذا
البيت، لذا قررت أن تقضي اليوم بطوله غدا في أحضان
الشمس والرياح... وهي صحية ستيليو!

٥- أصدقاء أم عشاق؟

شعرت رافينا باجهد في اليوم الذي أمضته على الشاطئ، لذلك استيقظت اليوم التالي في ساعة متأخرة من النهار، ورأت أشعة الشمس تملأ غرفتها، وأدركت أنها نامت فترة طويلة.

جلست على الفراش، فوجدت صينية بجوار السرير، وضعتها على ركبتيها وصبت فتجانا من القهوة، وأكلت المربي والبيض بشهية. وأحسّت أن النهار ملك لها، تفعل ما تشاء، فإن دونا جوكاستا لم تستطع أن تجعلها سجينه غرفتها.

وبعد انقضاء ساعة، اغتسلت رافينا وعققت شعرها في تصفيفة ذيل الحصان، وارتدت بلوزة وسروالا فبدت أكثر شبابا، وعندما تطلعت إلى المرأة، توارد إلى ذهنها صورة دوناتا المعلقة في برج المادونا، وتذكرت ما قاله لها ستيليو فابريزي عن مارك عندما التقى به في روما منذ ست سنوات، كان بهي الطلعة، سعيدا، بلا ظلال شقاء في عينيه.

راودتها الرغبة أن تشاهد الصورة الآن، قبل أن تذهب إلى الشاطئ، وأسرعت بفتح باب غرفتها، فلم تجد أحدا، فالخدم منهكون في تنظيف وتلميع الدور السفلي، ولن تحظى غرف الدور العلوي بالاهتمام إلا في ساعة متأخرة من النهار، وهذا يتيح لها فرصة للتسلل إلى برج المادونا دون أن يلحظها أحد.

انسلت من باب صغير في جدار برج الفارس، ووجدت

نفسها أمام جسر حجري صغير يربط بين المبرجين، وكان برج المادونا يشبه برج الفارس في تصميمه، ففتحت على باب صغير في الجدار قادها إلى ممر معلم يتسلل إليه النور ضعيفا من نافذة ضيقة، وكانت الغرفة التي عاش فيها مارك مع دوناتا لا تختلف عن غرفة العروس التي يشغلها الآن مع رافينا.

كانت غرفة دوناتا تكتنوها الكأبة، وأسرار الماضي أصبحت رهينة أثاثها وتحفها، والستائر المسدلة تطوي الهمسات التي دارت بين الجدران، والسجادة صالحة صمت الدخان وهو يسعى هادئا، والحائط يحمل صورة الفتاة التي مارك.

لم تستطع رافينا أن تدرك ملامح زوجة مارك الأولى أو الثياب التي ترتديها وكانت الشمعدانات معلقة وهي قابعة تحت اللوحة، وإلى جوارها علب الثقاب وتشير إلى أن شخصا ما يأتي بين حين وآخر ليشعلها ويقوم بتأمل اللوحة وسط السكون الهامس الذي يشيع في أرجاء الغرفة.

أشعلت رافينا الشموع فألقت بأصواتها على الصورة، فرأت الشوب الذي ترتديه دوناتا، كان يمثل عصر ميدتشي، وقد تهدل في ثيابا رقيقة فأبرز قوامها النحيل، وتناثرت اللآلئ على شعرها الأسود وصغوف أخرى منها تحيط بعنقها الأبيض الطويل، من الممتع أن يتأمل المرء صورتها بقدر ألمه لفقدائها.

حملت رافينا شمعدانا، وأحسّت أنها فقدت الإحساس بالزمن عندما راحت تتأمل الفتاة التي منحت مارك نعمة المرح لدرجة أن أية امرأة لم تستطع أن تشغل بعد رحيلها مكانها في قلبه أو عقله، أو أحاسيسه. كانت تبدو شابة و مارك في العشرين عند زواجهما.

كانت دوناتا

التقى بصر رافينا بعيني دوناتا، وفي لحظة رأت فيهما الحيوية والوعي والعداء لها. وفجأة سرى تيار من الهواء أظفأ اللهب المشتعل في الشمعة فتراقصت الظلال في الغرفة، وعندئذ انتابها دعر شديد، فأسرعت إلى الباب

تبغي الهروب، وعالجت المقبض حينئذ ويسارا، ولكن الباب كان مغلقا بل موصدا.

وقفت رافينا مذهولة، ولم تصدق أنها أصبحت سجيننة البرج، وأن أحدهم تسلل عبر الممر الضيق، وأغلق الأبواب وراءها وهو يعرف أنها هنا وحدها مع الصورة.

تملكها الغضب، وراحت تدق الباب بقبضة يدها، مرة، ومرتين حتى أدركت ألا جدوى من محاولتها، وأنها أصبحت سجيننة لأحد سجينين: أما لمعاقيبتها على ما فعلته بالأمس أو بهدف إرهابها.

أدارت ظهرها للباب، وأسرعت إلى أقرب نافذة وأزاحت الستارة جانبا، وفتحت مصراعها، وأطلت برأسها وجدت المسافة طويلة بين البرج وفناء البيت الواقع تحتها. كانت عيناها الحزینتان وشعرها المتهدل يوحيان بأنها جورية سجيننة البرج منذ مدة طويلة، ولكنها تبحث عن طريقة للهروب أو قارس يسرع إلى إنقاذها.

ولكن ليس من منقذ. كان الفناء شاغرا، والعمال في حدائق الليمون مختلفين وراء الأشجار، وكانت الريح تهب حول البرج، وصيحات الطيور أشبه بصرخات السخريّة، لديها أجنحة تطير بها كما تشاء، أما هي فسجيننة هنا حتى يأتي أحدهم ليطلق سراحها.

دونا جوكانتا سجننتها هنا، أو أرسلت بابتيسا المطيعة لتفعل ذلك. إنها ظل سيدتها التي لا تفارقها، فهي عجوز الآن وتخشى أن تعصى الأوامر حتى لا تفقد عملها في هذا البيت.

سرت قشعريرة باردة في جسم رافينا، ولا تدري كم من الوقت مضى عليها وهي سجيننة ولا بد أن تمر ساعات طويلة قبل أن تطلق دونا جوكانتا سراحها من البرج، إنه مجرد درس تلقى على عروس مارك لأنها تجرات وتحدثت إلى رجل، وتحدثتها بعزمها على مقابلته ثانية.

تطلعت إلى الجدران لعلها تجد سردابا سريا. لاشك أن هذه الفكرة محتملة. فقديمًا في عصر غارات القراصنة، كان الإنسان يشيد بيته بحيث يضم غرفا سرية، فيها تختبئ

أسرته، أو يبني سردابا يساعدها على الهرب إذا ما فكر المهاجمون في اقتحام البيت. وشرعت رافينا في الطرق على أماكن متفرقة من الجدران، ولكن لم تكن هناك أية استجابة لطرقاتها أو يدور أي إطار بارز ليفتح لها سردابا يساعدها على الهروب من الجدران السمكية.

دارت بعينها في أرجاء الغرفة، ووقع بصرها على المرأة فرأت نفسها ترتدي السروال والقميص الصبائي، فلم تصدق أنها زوجة مارك، وبدا لها أن دوناتا ما زالت تحتل مكانها كسيدة القصر، أما الصورة التي تعكسها المرأة فهي لا تعدو أن تكون صورة طفلة شقية، وقد قال لها مارك ذات يوم وهما يغادران رافينهاول:

"أنت ترتدين ثياب صبي، وأنا أتوقع أن أتزوج امرأة". أدارت بأصابعها خاتمها الذهبي الذي يدل على زواجهما، وعادت تتحول في الغرفة حتى وقفت أمام النافذة حيث وجدت فيها فجوة عميقة، فقفعت فيها كما يقبع القط المتفطر قلبه، وبدت السماء الزرقاء ساخنة، وأشجار السرو داكنة وهي تناطح عنان السماء. كان الصباح جميلا، ولكن رافينا ضحكت لأنها اختلطت بهذه الطريقة الغريبة في خلال هذه الساعة المشمسة التي كان من المنتظر أن تقضيها مع ستيليو فابريزي، وكلبه تيوي، ولا بد أنه حدس بأنها لا تتمتع بالحرية التي تتيخ لها أن تنضم إليه في الشاطئ، وتتمتع برحلة بحرية، ولا يدري أن الأبواب أوصدت عليها وأصبحت سجيننة.

فكرت في جاردي الذي يعتقد الآن أنها سعيدة، عندما يتلو رسالتها التي تسلمها الآن منها، ولكن أي سعادة تتكلم هي عنها؟ كيف تجدها في مثل هذا البيت المسكون بالفتاة الفاتنة دوناتا، وتحكمه سيدة عجوز كانت ترغب أن يتزوج حفيدها بفتاة من اختيارها.

شعرت رافينا بوطأة السكون والوحدة تجثم على صدرها، وبخوف مفاجيء من أن يمضي مارك غائبا لعدة أيام، فتقع تحت رحمة تصرفات شاذة أخرى، ومزيد من المؤامرات التي تثبط من روحها، وتصبح في النهاية ظلا

مطيعا مثل بابتيستا . عندئذ صرخت قائلة : " لا " . وجرت نحو الباب لتتبين ما إذا كان مفتوحا أم ما زال مغلقا ، ولكنها وجدته موصدا ، وشعرت برغبة في البكاء ، وبلغت ريقها ، وحاولت أن تعزي نفسها بأن دونا جوكاستا سوف تطلق سراحيها حينما يحين موعد طعام الغداء ، ولن تكون قاسية فتدعها سجينه حتى يحل الظلام وتسمع نحيب اليوم . أخذت وسادة من أحد المقاعد ، وأزالته الغبار عنها ، وهيأتها بحيث تستطيع أن تغمض عينيها عليها ، وتعود القهقري إلى رافنهول . أجل هناك حيث توجد شجرة الدرمار ، والأرجوحة التي سقطت منها يوم أن دفعها رودري غالبا ، وأحست بالسعادة عندما طارت عالية ، والخوف بغمورها ، وصاحت به ضاحكة : " كفى " ولكن رودري لم يأخذ بصيحتها ، وواصل دفع الأرجوحة حتى سقطت منها . . . وسمعت صوتا يقول :
" رافينا " .

أحست بفزع وشعرت بالهم في ذراعها فقالت :
" أو . . . رودري . . . "

انسحبت اليد فجأة من فوق شعرها بعنف ، واستيقظت تماما وهي فزعمة عندما رأت أن الشخص المائل أمامها كان مارك وأن الألم الذي أحست به كان نتيجة ضغط كتفها فوق سور النافذة . قالت بدهشة :
" مارك ! "

قال :

" أنا أسف لأزعاج أحلامك الجميلة . "

دعكت رافينا ذراعها الخدرة ، وأحست بدوار قليل :
" لقد . . . لقد . . . أخذت إلى النوم . "

سألها :

" ماذا تفعلين هنا ؟ "

أحست بعينه تتأملان شعرها ، وسروالها الصباني ، وشعرت ببرودة تسري في أوصالها . قالت له :
" أوصد أحدهم الباب علي منذ ساعات مضت . جدتك فعلت ذلك يا مارك . أنا أعرف هذا تماما . "

قال متحجما :

" أوصدت عليك الباب ؟ الباب كان مفتوحا ، وفي وسعك أن تتأكدتي بنفسك . لماذا تتوهمين أن جدتي تفعل مثل هذا الأمر معك ؟ "

قالت :

" أنا لا أتوهم شيئا . إن دونا جوكاستا تكرهني ، وتريد أن تخيفني . "

بدت الدهشة وعدم تصديق كلامها على وجهه . سألها :
" اعتقد أنك أتيت إلى هنا من قبيل حب الاستطلاع . لم نعد نستخدم هذه الغرف فأصبحت أقفالها صدئة . "

" أوصدوا الأبواب علي ، وقرعت ، ولكنها لم تفتح . "

سألها :

" ولكن أين كان المفتاح ؟ "

" كل مفاتيح البيت مع دونا جوكاستا . أخبرتني ليلة أمس أنها بحوزتها ، وأنها لن تعهد بها لأحد . "

" هل سألتها عنها ؟ "

تنهدت رافينا وقالت :

" بالطبع لم أسألها . لم نتناظر بسبب إدارة الكازا وانها . . . "

" إذن أخبريني عن سبب المشاجرة ؟ "

" ذهبت إلى الشاطئ ، وكنت أنوي الذهاب اليوم أيضا . هناك قابلت ستيلىو فايريزي ، وأخذني في زورقة ، وقمنا برحلة بحرية ، وعندما عدت إلى المنزل سألتني جدتك أين كنت ، ولما أخبرتها أمرتني ألا أرى سنيور فايريزي مرة ثانية . وظننت أنها شخص دكتاتوري فقلت لها بأنها لا تستطيع أن تمنعني من أن أعقد صداقات مع الآخرين . وهذا الصباح لا بد أنها رأته عبر الجسر المؤدي إلى برج المادونا ، وأنا واثقة تماما أنها أمرت بابتيستا أن توضح الباب علي ، حتى لا أستطيع أن أذهب إلى الشاطئ . "

" وهل أعددت الأمر لمقابلة فايريزي هذا اليوم ؟ "

ووقع السؤال عليها مثل لسعة السوط ، وتذكرت أن الشخص الذي تتحدث إليه هو زوجها ، وأن من حقها أن يعترض بشدة على أن تقيم أية صداقة مع الفنان الجذاب . قالت بصوت

مرتجف:

"أخبرني أنه يريد أن يرسم رسوما تخطيطية لصورتي، فقلت له يجب أن يسألك أولا."

أحكم مارك قبضته وضغط بها على رسفها، وبدأت الهامة تزول تدريجيا من وجهه وقال:

"أنا متأكد أنك ما زلت تتذكرين وجودي. سوف لا أعضب منك، فأنت جديدة على أساليب معيشتنا، وتعتبرينها قييدا على حريتك."

"أعتقد أن حبسي في البرج يعد قييدا على حريتي."

"لأننا واحدة من أهالي سردينيا، ومن المحتمل أنها ظننت بأن ما تفعله هو تأمين لسلامتك."

"مارك... هل من المعقول أن أعامل معاملة الطفل العاق لمجرد أنني تناولت السجق والخبز مع ستيور فابريزي؟"

"أنت لست طفلة في نظر جدتي. أنت امرأة... بل زوجتي... وأهل الجزيرة يعتبرون لقاء رجل بامرأة وحدهما انما لغرض واحد، هو أن يفارسا الحب!"

"مارك... هذا كلام غريب! في وطني يمكن للرجال والنساء أن يكونوا أصدقاء دون أن يكونوا عشاقا."

"أنت الآن هنا في وطنك يا رافينا!"

اشتدت قبضة يده، واقترب منها وهو ينظر إلى عينيها مليا، ورفع رأسها بيدد الأخرى حتى تألق احمرار شعرها في ضوء الشمس الذي تسرب خلال النافذة:

"هل لي أن أذكرك بأن من حقني أن أكون الرجل الوحيد الذي يحتل كل تفكيرك؟ هل جئت هنا لرؤية الصورة المعلقة على الجدران؟ وهل كانت تحذوك الرغبة في معرفة ما إذا كانت دوناتا أجمل... وأدق... وأكثر اثونة منك؟"

ثم أضاف:

"سأطلب من فابريزي أن يرسمك، عرقته في روما قبل أن يصبح مشهورا في دنيا الفن. طيعا أخبرك بأننا التقينا هناك."

"أجل يا مارك. أنزلني من فوق ذراعيك. أشعر بدوار وأنا أنظر حولي دون أن أتعلق بسور الجسر."

"تعلقني بي - ضعي ذراعك حول عنقي، أيتها الساحرة الباردة..."

ضحك مارك وترددت ضحكته في كبرياء، وهما يسيران فوق الجسر. انه رجل قوي وقاس لا يلين مثل الأرض التي يمتلكها ولا تستسلم بسهولة ليد أنثى نحرشها. وحتى هذه اللحظة كانت رافينا تحس بالخجل من أن تلمسه، وتمنت أن يدعها تقف على قدميها وهي تشير بقناة الصليب الدافئ. حينما رأت شخصا يقف تحت المنزل ينظر اليهما فقالت:

"مارك انظر، ستيور فابريزي يتطلع إلينا."

كان ستيو يلوح لهما، وشعرت بنفسها تتحرر من ذراعيه وهي تقول:

"يجب علي أن أذهب لأغير ملابسني، وسوف أنضم إليكم."

وأسرعت تعبر الجسر وتدفق إلى برج الفارس، وأضحت بالراحة عندما وجدت نفسها وحيدة في غرفتها، وجذبت حبل الجرس لتستدعي الخادم، وسألته أن يحضر لها ماء ساخنا، وتهجيت أن مارك لم يجد بينه وأتابيب المياه الساخنة، وسوف تتحدث معه في هذا الأمر، وأجفلت عندها امتد تفكيرها إلى نفسها كزوجة، وأن من حقه أن يملأ عليها طلباته. عاد مارك إلى البيت، وفي هذه الليلة سيحاول أن يوقظها، ليس من أجل أن تستجيب لهذا الخدر الغريب الجامح الذي يسميه الحب، وإنما لتستجيب لهذا الجوع الذي يعربد في أعماقه وتكون ثمرته طفلا جديدا تلده له.

أحضر الخادم الماء يتصاعد منه البخار. وعندما خرج قضت ثيابها وراء الستائر، وغسلت جسمها التحيل، وتخلصت من التراب، وأحاطت جسمها بفوطة، ثم سارت إلى خزانة لتتقي أحد الأثواب، لا بد أن ستيو سيقف ليحتسي شرابا مع مارك، وأن يتبادلا الرأي حول موضوع الصورة، وتحديد موعد الجلسات التي تقف فيها أمام الفنان، كانت ترغب في أن تظهر على لوحة القماش في صورة أبيه من صورة دوناتا حتى تشير اعجاب الجميع بها.

ابتسمت رافينا وهي تتطلع إلى نفسها في المرآة، فرأت ساقيين طويلتين ونحيلتين، وقدمين بأصابع طفل،

وذراعين لهما استدارة محببة، وخصلات شعرها الأحمر تنسدل
مثل ذواتب الذهب فوق كتفها الناحيين.
سمعت صوتا يأتيها من خلفها يقول:

"يا للأسف، أنتي لا أسمع برسمك في مثل هذا الوضع الذي
أراه الآن."

سرت قشعريرة في أوصالها بينما كان مارك يعقد رباط
عنقه عند باب الغرفة، فهو الشخص الوحيد الذي يحق له
التطلع إليها وهي في غرفة نومها. قال لها:

"دعوت فابريزي لتناول طعام العشاء معنا."
قالت:

"هذا شيء جميل."

وأصكت بثوب أصفر اللون، وأكمام من الشيفون،
وكان مارك اقترب من المرأة ليثبت رباط عنقه فسألها:

"هل تحبين احتساء الشراب في الشرفة المطلة على البحر؟"
ثم تحول لمواجهتها، وأجفلت كعادتها من نظرة افتراسها
التي تتلأأ في عينيها، ورسمت ابتسامة على شفتيها حتى
تخفي اجفاليها، وقالت له:

"وشيتا لناكله، أنني لا أستطيع أن أبقى بدون أكل حتى موعد
تناول العشاء، يكاد يقمى علي."

ضاحت عيناها وهو يسألها:

"ألم تتناول طعام الغذاء؟"

قالت وهي تضحك:

"أخبرتكم أن أحدهم أوصد الباب علي وأنا في البرج، ولم
يكلف نفسه حتى تقديم كسرة من الخبز أو كوبا من الماء."

تقدم نحوها في خطوة حازمة، وقال:

"رافينا، أنا أسف أن تفوتك وجبة طعام الغذاء، وهذه تجربة
مثيرة للأعصاب، ولن تحدث ثانية، سوف أتحدث إلى جدتي

بقسوة."

هزت رافينا يده وقالت:

"لا يا مارك، سوف يزيد ذلك من عداوتها لي إذا ما تحدثت
معي بعنف."

تجهم وهو يقول:

"عداوتها؟ هل تظنين الأمر كذلك؟"

قالت رافينا:

"وماذا يكون الأمر غير ذلك؟ دوننا جوكاستا. كانت ترغب في
أن تتزوج فتاة من بنات سردينيا، بدلا من أن تأتي بفتاة
غربية، ربما قطعت أن زواجنا يا مارك لا يقوم على
الحب."

حدق في وجهها. وارتفع حاجباه: فرأت فيه الرجل الذي
أجبرها على الزواج دون أن يتقوه بكلمة رقيقة، وجذبت
نفسها منه، وتحولت عنه لتأخذ ثوبا وسألته:

"كيف عرفت أنني في البرج الآخر؟"

قال:

"الستائر كانت مفتوحة، كان يجدر بك ألا تذهبي إلى هناك،
الغرف كلها كثيفة، ويجب أن تظل مغتقة، سألقي نظرة
عليها."

وفي اللحظة التالية، غادر الغرفة بسرعة
تاركا رافينا وراءه لترتدي ثوبها، وتصفف شعرها في
شينيون، وكانت فتحة الثوب تمتد ما بين كتفيها لتبرز تضارة
بشرتها، وعظمتي الترقوة. وراحت تتأمل نفسها في المرأة
وقررت أن تزين الذي أهداه إياها مارك.

تحولت رافينا عن المرأة لأنها رأت نفسها في صورة
فتاة أشبه منها بالمرأة الناضجة التي يبحث
عنها مارك والأم التي تهيب الطفل الذي يتوق إلى رؤيته
ليخرج من ذاكرته ذكرى الطفل الذي فقده بقسوة.

أقبل ستيليو، وعلى شفتيه ابتسامة ثم قبيل
يد رافينا وقال لها:

"التقينا ثانية يا مادونا. واستيور زوجك أذن لي برسم
صورتك، ولا أستطيع الانتظار طويلا."

حيا ستيليو مارك بابتسامة سريعة ثم
قدم مارك مقعدا لرافينا لتجلس عليه بالقرب من أرفار
المرتقال التي كست جدار الشرفة المطلة على الشاطئ. قال
الغنان:

"ليست الستيور موضوعا يسهل إهرازه على اللوحة، ولكنني

استمتع بالتحدثي *

سأله مارك:

*لماذا لا تجدها موضوعا سهلا؟

ثم راح يتأمل مليا ثوبها الأصفر، ويقارنه بلون ثبته البرتقال المرتعشة، وأشعة الشمس الخضراء التي تنعكس على شعرها ثم أردف يقول:

*بيدو لي أن زوجتي لديها الألوان التي تحوز إعجاب الفنان تيتيان؟

قال ستيليو مؤيدا:

*تماما كما تقول، العنان بتغيران من خضرة البحر الى لون اشجار القابة الفامضة تبعاً لتغير مزاج صاحبتها *

*أعدك بأن أظل في وضعي ساكنة كلما جلست أمامك يا سنيور *

وشعرت بالفضول من الطريقة التي تناقش بها موضوع رسمها، وأحست بالارتياح عندما ظهر رينزيو حاملا صينية عليها المشروبات والسندوتشات، وفي أعقابها يسير الطبي بامبو فأقبلت عليه رافينا بفرح شديد.

قال رينزيو معذرا:

*ظن نفسه كلبا كبيرا يا سنيورا، فاقفني خطاي، هل أعود به الى الأسطبل؟

ابتسمت رافينا وربتت على أذني الطبي وقالت:

*دعه لي يا رينزيو، انه جذاب، اليس كذلك؟

قال مارك:

*لا يمكنك أن تتناول السندوتشات والطبي في حرك، انظري، انه يحك أنفه في شعره *

أشارت رافينا بأصبعها الى الطبي تحذره قائلة:

*اهدا *

ثم التفتت الى مارك وقالت:

*سيكون رائعا، متألعا مثل الذهب *

قدم مارك لها طبقا عليه السندوتشات، ثم التفت الى ستيليو وقال:

*هل تشرب كأسا يا سنيور فابريزي؟

قال ستيليو وهو يتقبل الكأس:

*شكرا *

ثم تطلع الى رافينا والطبي وأردف يقول:

*وجدت الآن فكرة الصورة التي سأرسمها لك، بينما الطبي يقبع في حرك أو ربما أدعه يقف تحت قدميك *

*هذا اذا جلس فترة طويلة ساكنا، ألا تشاركاني تناول السندوتشات، انها لذيذة؟

كان مارك غارقا في مقعده ممسكا كأسه، وهز رأسه بالرفض، بينما استند ستيليو بظهره الى حائط الشرفة، والقلق يتراقص في عينيه، وتحذوه الرغبة لأن يبدأ العمل على قياس الرسم، ويقول لنفسه *إنها فتاة جذابة كأي فتاة ايطالية، ولا حظ ضوء البحر وهو يبعث أشعته على الشرفة، في هذه اللحظة من وقت الأصيل، قال:

*هل تأذن لي يا سنيور بأن أرسم الصورة هنا في الشرفة، أحس أن السماء والجيال تمثلان أروع خلفية لصورة رافينا *

تطلع مارك بعينيه الى رافينا وقال:

*يعجبني ثوبك يا رافينا، هل يمكنك ارتداؤه عند رسم صورتك؟

*كما تشاء يا مارك *

قال ستيليو مقترحا:

*وشعرها مسترسل وقد تطاير قليلا في مهب الريح *

راحت رافينا تراقب الشمس وهي تحترق في الأفق، وبعد قليل اقترحت الدخول الى البيت، فقد أحست بالبرودة تشيع في الجو، قال ستيليو:

*لا شك أنك تعرضت لرياح الجبل بعدما غابت الشمس *

قالت رافينا:

*هناك نار في مدفأة الصالون *

حملت رافينا الطبي، وساروا جميعا الى الداخل، وكانت ترجو ألا تشاركهم دونا جوكاستا طعام العشاء، وتحققت أمانيها، وأقبلت باثيستا وقدمت ورقة لمارك ثم غادرت المكان، قرأها بنجهم ثم ألقي بها في النار، وسأل رافينا وضيغه أن يسمح له بالانصراف لعدة دقائق.

وخيم الصمت على الصالون لمدة وجيزة، قطعه صوت تكسر
الخشب المحترق في المدفأة - سألها ستيليو:
"كيف تسير أمورك مع البادرونا العجوز؟"

نظرت إليه رافينا بتأمل وقالت:
"إنها لا تسير سيرا طيبا. أصيبت بخيبة أمل عندما
تزوج مارك بأجنبية. أظن أنها كانت دوناتا، وهي
دائما تعقد مقارنة بيني وبينها."

قال ستيليو بهدوء:
"ليست هناك أية مقارنة."

ركعت رافينا على ركبتيها فوق السجادة، ومدت يديها
تلتهمس الدفء من نار المدفأة وقالت:
"أعرف ذلك. كانت دوناتا جميلة، كما أنها كانت تلتئم
بكل أسباب الكياسة."

ساعدها ستيليو على الوقوف على قدميها وراح يتأملها على
ضوء اللهب ثم قال لها:

"لكنك تتجتمعين بجمال الروح يا رافينا، في كمال الحقياس،
ولديك جمال الجسم."

قالت:
"ستيليو..."

وجدبت نفسها من يديه مدعورة، كانت تخشى
ظهور مارك المفاجيء، فيراها على مقربة من الفنان
المليح الوجه، وأردفت تقول:

"أريد أن نكون أصدقاء، ومن المستحيل أن تنفوه بمثل هذه
العبارات التي لا يحبها مارك."

قال بهمس:
"هل أظاهر بعدم وجود أمس، فيه رأيك أسعد حالا من اليوم؟"

هل تشعرين بالسعادة عندما يغيب زوجك عن البيت؟
وأحسنت أنه يطرق الحقيقة فقالت له:

"ليس من حقي أن تقول أشياء مثل هذه. لقد
سألك مارك أن ترسم لي صورة لا أن تقوم بدور محلل
نفساني لي."

"الفنان يتعلم قراءة لغة العيون، والعيون نافذة تطل على

الروح. كم تحببت أن تكون دروبنا اللقبت قبيل أن
يطرق مارك باب حياتك. أظن يا مادونا أننا أنت
وأنا كنا سنعثر على الشيء الكثير الذي نستمتع به سويا."

قالت بحزم:
"أعتقد أنك تجاوزت حدود كرم مارك. أنا لست واحدة من
ربائلك التي تستهويها مغازلة فنان مليح الوجه مثلك وأظن
أنه من الأفضل أن نلقي جلساتنا."

قال بهدوء:
"أظن أنك ستندمين..."
"أندم؟ ماذا تقصد؟"

"أعتقد أنك بحاجة إلى صديق، ولم أفترض أبدا أنك لشبهين
واحدة من النساء الأخريات اللواتي جلسن أمامي. أن
سمادتهن تبلغ درجة عالية عندما يقوم فابريزي برسم
صورة لهن، ومغازلتي لهن ترضي غرورهن. أما أنت فشمسية
مختلفة تماما. أنا معجب بك، وأريد أن أرسم صورتك لأنك
صورة للتحدي، وأدهشني كثيرا عندما أسأل نفسي هل في
وسعي أن أنقل إلى القماش هذا السحر الذي أراه في عينيك،
وجوهر الحزن الذي يشوبهما، وهل يمكن أن يكون الأمر غير
ذلك، وأنت شابة تعيش مع زوجها ويشارككما الحياة شيخ
امراة أخرى."

تطلع كل واحد منهما إلى الآخر حينما فجأة نوهج لهيب
النار وكشف لها الحقيقة واضحة فحاولت رافينا أن تبدو
مثل المضيقة الفخورة ببيتها. قالت له:
"هذه الفرقة جميلة. اليس كذلك؟"

وراحا يتبادلان الرأي حول النقوش المرسومة على السقف،
عندما رأت مارك يقبل عليها، وشاهدت مسحة من التحنن
ترتسم على جبينه، وأدركت أن دونا جوكاستا بعثت
الضيق في نفسه، ولكنه سرعان ما تخلص من مزاجه
المنحرف، وبدا جذابا وهم يتناولون الطعام، وحاول أن
يذكر رافينا كيف استطاع أن يجذب اليد جاردي عندما
كانا يتناولان الطعام في راقصهول، وراح يسرد عليهما قصصا
طريفة أشاعت في نفسها الضحك، وجعلتها تنسى ندوبه

المخيفة، فبدأ لها ساجداً.

أخذت رافينا تعبت بأصبعها فوق حافة الكأس، ولاحظ لها أن هذه الغرفة الكثيفة لم تشهد منذ فترة طويلة ضحكات مججلة كما تشهد الآن ستيليو وهو يضحك بمرح. كان في ضحكه جذاباً، تلاماً أسنانه وسط بشرته الإيطالية، وعليها أن تكون حريصة في الأيام المقبلة على ألا تظهر أعجابه للرجل الذي ستمضي معه في الشرفة أصيل كل يوم.

استعد ستيليو للرجيل فقالت له رافينا:

"أحضر معك تيو. سيفتقدك كثيراً بحضورك وحدك هنا. وجه ستيليو حديثه لمارك قائلاً:

"زوجتك يا سنيور تتمتع بقلب حنون. انها تفكر أيضاً في كلبى الصغير. سأحضره معي أحياناً، بعد ذلك." قال مارك:

"طبعاً."

ثم وضع يده حول خصر رافينا، وسقط نور مصابيح الباب فوقهما، بينما كان ستيليو يستعد للجلوس وراء عجلة القيادة، فالتفت إليهما وقال:

"وداعاً."

وكان الليل ينبض بالحياة، بصوت محرك سيارته، ولكن الصمت خيم على الكون بعد رحيله، كان الليل ساكناً إلا من همس خافت يجوب بين أشجار السرو، ووميض خفيف ينبعث من الزهور الفامضة التي تتبدل من اللون الأزرق إلى اللون الأبيض، عندما يرخي الليل سدوله.

تتمم مارك قائلاً:

"الزهور مثل أفكارنا، تتغير مع مجيء الليل. أنت صامتة يا رافينا وهذا يدعوني إلى معرفة أفكارك." قالت:

"أنا ... أنا أرجو أن تكون الأمور قد استقرت في المصنع."

"أجل ... انتهينا من موضوع الآلة الجديدة. بعض العمال يشكون من الآلات الحديثة. ألم أقل لك أن أهالي سردينيا يتمسكون دائماً بالأساليب القديمة؟"

أصاب رافينا التوتر عندما شعرت بيده تتلمس شعرها،

لأفقاالت:

"مارك ... أرجو ألا يكون قد شرب جذاًل بينك وبين جدتك!" أجابها ضاحكاً:

"هل تفصرون أنا لم تبادل الكلمات من قبل. أنا نتميز بالعزيمة القوية، وبالطبع لا بد من الجذاًل، كل منا مولع بالآخر، وسرعان ما ننسى، ونغفر. أخبرتها بأن سنيور قابريزي سيأتي إلى هنا كل يوم ليقوم برسمك، فأتوجتني بالحفاقة وسألتني أن أعهد برسمك إلى فنان أقل شباباً وجاذبية من ستيليو."

وبحركة سريعة، أدار جسم رافينا حتى واجهته، وأحاط خصرها بذراعيه وقال:

"أن شرف بيت السروي يقوم على طريقة محافظته على زوجته."

قالت:

"لم أجد مشقة في فهمك، ولكن ماذا تفعل لو أنني خنتك؟ هذا إذا اكتشفت الأمر بنفسك؟"

وللأ نأ نور الصباح في عينيهِ السوداءين وهما تتطلعان إلى عينيها، ورأت في أعوارهما شيئاً يخيفه، قال بهدوء:

"إذا تجاوز رجل حدوده فمك، سأحطيه، سيفقد كل شيء ثمين لديه."

تطلعت رافينا إلى وجه مارك ورأت نور الصباح يكشف الندوب الفائرة على صفحته والقسوة في كلماته، فتراجعت إلى الوراء، وأخست ببرودة تهر كيانها، وخضرة عينيها تخفى عبر رموشها. سألته:

"هل ندخل البيت؟"

قال:

"أجل."

دخل البيت، وأوصد الباب الكبير وراءه، ثم أمسك بيدها وبارا عبر الصالة التي تؤدي إلى السلم، فأخست بيده ذافئة وقوية وهما يرتقيان الدرجات، وتذكرت الليلة التي حملها فيها مارك إلى برج القوس، والفضب يموج في أعناقهم، أما هذه الليلة فان مزاجه يبدو أرق وهو ممسك بيدها،

٦- أدونيس جواد أسود

وعد مارك رافينا أن يقدم لها جوادا يكون ملكا لها تمتطيه وقتما تشاء، واختار لها مهنرا أخيرا، أبوه ذو فحولة يركض يجنون غير تلال سرديليا. وكان المهر رقيقا، استطاع أن يربط أواصر الصداقة بينه وبين رافينا. وكان أدونيس الأسود هو الجواد المفضل عند مارك. وذات صباح هبطت رافينا إلى الاسطبلات لتلهم مع المهر، وعلمت من صبي السائس أن أدونيس قد ألقى بصاحبه السابق أرضا، ووطأه بحوافره.

قال الصبي موحشا

"أدونيس يحب ألا يضربه أحد بالسوط، ومارك لا يحمل أي سوط، ولهذا كان الجواد أليفا معه."

وقفت رافينا على باب حظيرة أدونيس، تحمل قطعة من السكر في راحتها، وأتاحت الجواد بأنفه، ورفض أن يقبل الرشوة من شخص ما زال غريبا عنه.

ضحكت رافينا وقالت:

"أيها الشيطان المتكبر، لشد ما أتساءل أي شخص تريد أن يحتطيك؟"

عندما كانت رافينا قاصرا تعيش تحت وصاية واحد من الفرسان، كانت تستمتع بركوب الخيل وهي ما زالت شابة صغيرة، تعلمت هي و رودري حتى أتقنته. وأصبحت الآن تمسك بمقود الجواد وتقوده وهي ثابتة الجنان فوق السرج فاستدركت أن تكون فارسا ممتازة، ونالت

اعجاب مارك عندما رآها تمتطي برتاقة قوميها المهر
كدليل على تقديره لطريقتها في ركوب الخيل، وأدركت أن
زوجها السريديني لا يعجز عن اطرائه بالكلمات وإنما هو رجل
عملي.

وبنما هي واقفة تنأمل أدونيس باعجاب، تنأى ١١
سحها وقع حذاء يعبر فناء الاسطبل، فاستدار
لقرى مارك يرتدي سروال ركوب الخيلة وقميصا أبيض
اللون جعله يبدو أكثر شباهًا ورياضيًا في لباس القريسان، و
الحقيقة لم تعرف رافينا رجلا سليم البنيان ذووبا
زوجها، فهو يمضي ساعات طويلة يتفقد أعماله، ويعكف
مكتبه على دراسة أوراقه الهامة حتى ساعة متأخرة، كما
يعمل على إنجاز شؤونه المحلية بنشاط ملحوظ.

استسمت وهي تشعر بالخلل يعتصر قلبها، ثم قالت:
"صباح الخير .. أحاول أن أكسب صداقة أدونيس، و
يبدو خجلا مني."
"أرجو ألا تكوني حاولت دخول حظيرته، لقد أسيتت معا
مرة، فأصبح يشك في أغلب الناس."

قالت:
"أكبر التفكير في أن يكون أحد ألم مثل هذا الحيوان
الملكير."

ارتسمت ابتسامة على شفتي مارك وهو يذلف إلى
حظيرة أدونيس، فناولته رافينا السكر الذي التهمه
الحواد، وهو يدفع عنقه في كتف مارك، ثم وضع السرج على
مئنه، واللحام في فيه، وأدركت تماما مدى التفاهم بينهما.
انهما يقتسمان ألم الذكرى السوداء ويشتركان في الخطر
الداهم الذي يتعرض له المرء إذا ما راودته فكرة الاقتراب
منهما.

ثم سمعت وقع حوافر مهرها على أرض الاسطبل، بعد
خروجه من حظيرته، وقد أعد السرج على ظهره استعدادا
لرياضة الصباح، فأسرعت إلى امطائه، ونالقت شمس الشروق
فوق شعرها الذهبي، وسرج المهر الذي انتصبت أذناه، واهتز
لجامه، وكأنه يقول لراكبته "هيا بنا .. دعينا نطلق."

استدارت لئرى ما إذا كان مارك امتطى جواده، فتبينت
انه استقر فوق ظهر الحصان، وأرضى خافه القبعة فوق وجهه
الأسمر، وغادرا فناء الاسطبل وانطلقا إلى رحاب الريف،
وأحست رافينا بالحرية وهي تركض بجوادها عبر الأرض
الشمسية، رغم وجود مارك إلى جوارها. هناك سحر يكسو
لكون ... في رائحة العشب، وقطرات الندى التي تتألق فوق
شيدان الحشائش، وسيقان الأشجار الشوكية، وبعد قليل سوف
تستترق الشمس بيد حانية الألوان من الحشائش والزهور
ريفة.

كان قلب رافينا يبدو بأغنية غريبة، نصفها مرح،
نصفها الآخر دهشة، إذ أحست أنها قريبة من دنيا السعادة،
خيال إليها أن الريح تلهب سياطها فوق شعرها فانطلقت
جوادها تسابق مارك على أرضه التي يعرف فيها كل
شجرة وكل صخرة، وكل شجرة زيتون. وسألت نفسها: هل تريد
هبوب منه؟ والتفتت تنظر إليه، فرأت ابتسامة تكشف عن
نقائه البيضاء وسط وجهه الأسمر، وقد كبح جواده عن
مضي في الجري، تاركا أياها تعلقده أن في وسعها الهرب
منه، واندفعت قبعتها لتسقط وراء رقبته قبدا لها في صورة
خاطم طريق يتعقب خطاها، وتولتها رعدة من الخوف سرت في
أوصالها، رعدة دفعتها إلى أن تحت مهرها على الاسراع
وتثبتت ركبناها بالسر، وهو يتخذ طريقه إلى غابة الصنوبر
الكثيفة، وعندما تنأى إلى سمعها صوت الحصان وهو يتناثر
تحت وطأة حوافر أدونيس، كان المهر قد بلغ الممر الطحلي
المؤدي إلى داخل الغابة، ثم سمعت رائحة الرائع الصفية
المنبعثة من الأشجار، ويبدو أنها خدرتها هي ومهرها.
وحينما بلغت رافينا موقع جدول يتدفق فيه الماء عبر
الغابة، توقف المهر فجأة، فاهتز جسمها فوق السرج وانسابها
دوار، وتقطعت أنفاسها، ولغتها ظلال أشجار الصنوبر،
ونظرت حولها فرأت مارك في محاذاتها. قالت لاهثة:

"هذا .. هذا الماء، أهو صالح للشرب يا مارك؟"

قال:

"انه يتدفق من الجبال .. عذبا .. صافيا."

رمقته بنظرة سريعة، ثم انزلت جسمها من فوق السرج، وأسرع تركع فوق صفة الجدول، واستخدمت راحتيها لتنهل بهما الماء، وكان بارداً كأنه مثلج، وطفقت تستعذبه وهو يحري لذيذاً عبر حلقها. سألت مارك وهو يفرجل من فوق حصانه ويسند ظهره إلى شجرة صنوبر:

«ألا تشعر بالظما؟»
قال:

«في وسعي أن احتسي قليلاً من القهوة.»
وشعرت أنه يتطلع إليها وهي جالسة على حافة الجدول تجفف يديها، ثم أردف يقول:

«أتخمين الذهاب إلى مطعم صغير أعرفه حيث نتناول طعام الإفطار؟ انهم يصطادون السردين مباشرة من البحر، ويعدونه مشوياً أو ممشوا بالخضرة.»

قالت:

«أنا جائعة.» ان ركوب الخيل يفتح شهيتي.»
«أنت تحبين ركوب الخيل.» ليس كذلك يا رافينا؟»
قالت:

«لم أمتط جواداً رائعاً مثل هذا المهر.»

ورمقت المهر بشغف، ثم أردفت تقول:

«أحب رائحة الصنوبر، انها نقية منعشة طلاقة مثل ركوب الخيل السريع عبر الريح والماء البارد، وكل شيء له لذة فارصة.»

وتطلعت إلى مارك وراحت ليمان أسنانه وعلى تفتيه ابتسامة، وأدركت أنها وحدهما. إنه زوجها ومع ذلك هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يدغدغ أعصابها، وقد بدا جسمه واضحاً لها. انه عريض المنكبين، وتراقص الرغبة تحت قميصه الأبيض، وأطرافه طويلة، وأضاف حداؤه الذي يصل إلى ركبتيه سمة القوة إلى هيئته، وكان لا بد لها أن تمر بجواره كي تصل إلى مهرها، فأخذ قلبها يدق وهي تنهض واقفة واتخذت سبيلها نحوه.

مد يده في تراخ، وجذبها نحوه، ونفذت يده الأخرى في أغوار شعرها المتطاير، وفجأة اشتدت قبضته عليها وهو

يتحدث إليها:

«قلبك تسدو وكان الثلج يسري في عروقك، بينما تسدو النار في نظرة عينيك.» ما من مرة يا رافينا خلال الأسابيع التي أمضيها سويلاً شعرت بالدفء في قلبك.»

قالت والبرودة تشوب نبرة صوتها:

«محدثك كل ما يمكن أن أعطيك إياه.» إذا كنت تريد الحب يا مارك كان الأحرى بك ألا تجبرني على الزواج منك.»
سألتها وفي صوته نبرة سخرية:

«هل كنت تصيخين السمع لي لو غارلتك بالطريقة التقليدية؟ ماذا كان تفكيرك عندما التقينا لأول مرة؟»
أحست بنبضات قلبها تحفق قريباً من قلبه، وأدركت أنه يشعر بهذه الدقات المجنونة حينما قالت له:

«كنت أرجو أن تذهب بلا عودة.»

لدى وجهها وراح يتحسس العظام الرقيقة أسفل سترتها الناعمة وسألها:

«كأن الشيطان قام بزيارتك.» ليس كذلك؟ هل كنت أبدى شيطاناً أمامك يا رافينا؟ هل بعثت الشقاء في نفسك؟ منذ لحظة وجيزة كانت عيناك تتألقان؟»

قالت: «أنا .. أنا أحب أن أملطي مهري.» من الأفضل أن تعطيتي جواداً، أستطيع أن أمتطيه جيداً.»
«لا بد أنك تعلمت ركوب الخيل منذ طفولتك.»

«أجل .. جاردني كان دائماً يعاملني وكأنني ابنته، وما تعلمه رودري، لم يكن ضئيلاً علي به.» ذهبت سويلاً إلى مدرسة تعلم ركوب الخيل.»

«هل عشتما مع بعضكما البعض فترة؟»

وتطلعت إليه، ولمحت القسوة في عينيه، وقالت له:

«كما أخبرتك من قبل يا مارك. انني لا أستطيع أن أعجو ذكرى رودري من عقلي.» كما عرفتته كان مزاجاً، أنيقاً في زيهِ العسكري، وجذاباً.»

قال مارك بنبرة مزيرة متسائلاً:

«جذاباً؟ هيأ بنا ودعينا نتناول طعام الإفطار.»

وقاما بامتطاء الجوادين، وقفلا عائدين من غابة الصنوبر.

وكانت الشمس دافئة وهذا بمضبان في العمر المؤدي الى
الفندق الصغير القائم فوق التل المطل على الشاطئ.. وكانت
جدرانها الخشبية بيضاء، وسطحه منحدرًا قليلًا، وله حديقة
تناثرت فيها أشجار الكروم والجميز، وشجرة توت كبيرة
ضفت الحوائد تحت أغصانها.

قادهما شاب عجول الى إحدى الحوائد، وكان يتحدث
بالإنكليزية مكسرة، سريع الحركة، أطاح الملاحه وهو يهرد
القوطه، ويضعها على حجر رافينا وقال:

"أجل.. أجل يا سيدي.. سيأتي السردين طازجا من البحر
مباشرة.."

وظهرت في الحديقة شابة خافية القدمين، ترتدي ثوبا
قرمزي اللون، وتحمل فوق كتفها سلة مملوءة بالسمك،
منحت مارك ابتسامة سريعة، ورمقت رافينا بغضول
ثم قالت:

"صباح الخير يا سيدي، هل أتيت لتتناول السردين المشوي،
كما كنت تفعل في الأيام الخوالي؟"

"أجل يا سانتورا.. أحضرت زوجتي لتأكل الذ طعام اقطار
موجود في كل سردينيا.."

قالت سانتورا:

"لطيف منك أن تقول لي ذلك يا سنيور.."

ومنتحه الشابة انحناءة احترام، وأدهش رافينا جرأتها
ونظراتها الضاحكة وقد أضافت بلورتها الزرقاء وتلورتها
القرمزية الحيوية لشبابها، كما لاحظت أنها تنظر
الى مارك وكأن بينهما صداقة قديمة.

حملت سانتورا السلة الى الفندق،
وظل مارك كوبيين من اللبن ليحتساء حتى الانتهاء من
طهي السمك، وأنت سيدة عجوز بالكوبيين، وكانت ترتدي
وشاحا أسود اللون فوق رأسها شأنها في ذلك شأن كل جيلها
العسن.. قالت بالإنكليزية:

"أتذكر يا سيدي عندما كنت تحضر معك ابنك، هذا الصغر
الصغير الشقي ليحتسي لبننا.."

... ثم أضافت قائلة بالإيطالية:

"كوزي ايستا لافينا"

ثم طفقت تجوب بنظراتها لتتأمل رافينا، فأدهشها لون
شعرها الأحمر وبشرتها البيضاء، وأردفت تقول بالإنكليزية:

"إنها قطعة رائعة الجبال.. لا يد أنها تدبر رأس أي رجل،
ولكن من الأفضل أن تقترن بواحدة منا.."

وراحت تستهتلم وهي تغادر المكان، وتركت
وراءها رافينا مشدوهة، وسألت مارك:

"إنها تعني.. هكذا هي الحياة!"

وكان الكلمات التي تفوهت بها العجوز أعادت الزمن
القوي، وتذكر مارك بوضوح عدد المرات التي جاء فيها
الى الفندق، بصحبة فتاته ذات الشعر الأسود لتتناول معه
طعام الاقطار، وبعد مدة كان يأتي معهما ابنتهما الصغير..
الصغر الصغير الشقي.

احتست رافينا رشقة من اللبن، وراحت تبحث عن شيء
تقوله، أوه، لماذا أتى مارك بها الى هنا؟ لماذا... وهذا
المكان يحمل ظلالا من الذكريات، وقد يحدث أن يسمع
ضحكات طفل توارى وراء أشجار الكروم والجميز.. قالت:

"مارك"

ولكنه قاطعها قائلا:

"كل شيء على ما يرام يا رافينا.. أشكرك على تلك النظرة
التي تجول في عينيك.. الشفقة من أجل الطفل، كان يحلو له
الدمج الى هنا، والاختباء وراء الأشجار، ورش الماء من
النافورة العتيقة، ولكن الذكريات لا يمكن محوها كما تقولين،
كما أنه لا يمكن الاختباء منها.. ها هي ناناينا تأتي
بالسردين.."

أقبلت رافينا على الطعام بشهية، وهي تقول:

"لم أذق في حياتي مثل هذا السردين اللذيذ والخير ما زال
دافئا خرج لتوه من الفرن، والزبدة تسيع من شريحته.."

قال مارك:

"يبدو منظر كالكالاميدة الجائعة.."

حقا، كانت رافينا بشعرها المتطاير، وقميصها المفتوح
وهي ممسكة بقطعة الخبز الدهون بالزبدة، لا تكاد تبدو

أنها زوجة، ولا يؤكد زواجها شيء سوى خاتم الزفاف الذي يزين يدها اليسرى. وأدركت أن مارك يفقد مقارنة بينها وبين دوناتا. لا بد أنها كانت هادئة وفاتنة ورشيقة، وشعرها الأسود ناعما، وعيناها على استعداد لأن تهيه ابتسامة خلابة، وصوتها الناعم فيه سحر وإغراء. مسحت رافينا شفيتها، ولا ريب أنها كتحت الصرخة التي ندت من قلبها. لقد عرف مارك الحب، ولكنه حرما الفرحة الممتعة لهذه العاطفة. كل ما لديه هو الرغبة فقط. سألتها:

"ماذا تريدان الآن أيتهما العروس؟ هل ترغبين مشاركتي تناول فاكهة بيرسيفون؟"

راحت تراقبه وهو يقطع الفاكهة مناصفة ورأت العصير يجري فوق يده التي كستها الندوب، وأردف يسألها:

"هل تعرفين أسطورة بيرسيفون؟"
التهمت رافينا قطعة من الفاكهة اللذيذة وقالت:

"التقى بها أدونيس مصادفة وهي تقطف الزهور، وحملها معه إلى قصره. هل تسمح لي بعد مضي ستة أشهر أن أعود إلى عالمي مرة أخرى؟"

تطلع إليها مارك وقال:

"إذا كنت ترغبين في رؤية جاردني لن أقف دونك. أما إذا كنت ترغبين في رؤية رودري الجذاب فهذا شيء آخر!"

"أرجوك... هل من المحتمل أن يدور حديثنا عنه؟"

قفزت رافينا واقفة على قدميها، وطفقت تتجول بين أشجار الحمير والكروم. وكانت عناقيد العنب صغيرة ومرة، وعثرت على عريشة تظلل مقعدا صغيرا من الحديد. جلست عليه، وأخذت أصابعها تلوي بعنف مندبلها، ولم ترفع رأسها حينما أظلم المدخل بجسم مارك الفارع. قال:

"يجب أن نعود إلى البيت."
وتذكرت بيتها في وطنها. وتواردت الصور على عقلها، عندما فكرت في العودة إلى بيتها، إلى غرفتها في رافنهول، بناقذتها الدائرية، وشرفتها الممتدة وكتبها، وظلوتها التي تظمن إليها في أحضان الجدران البيضاء.

قال لها:

"تعالى."

وشعرت أنها وقعت في شرك، ولا سبيل لها للخروج من العريشة إلا الوقوع في أحضانها، فصرخت قائلة:

"أكرهك، لن أشعر بشيء سوى الكراهية نحوك، ونحو القلعة، والرياح التي تهز أشجار السرو. إنها تبكي في الليل لشيء سوى الحبيب في الكازا سيبريسوا. هل شقر هذا البيت يوما بالسعادة؟"

قال لها:

"ما زلت صغيرة..."

وجذبها نحوه، ولما حاولت أن تنفلت هاربة من بين يديه، شعرت بقوة تجذبها ثانية، فقالت له:

"أنت تحب أن تثبت لي أنني لا أستطيع الفرار منك. هذا ما تحبه... اليس كذلك؟"

فصاح بمرح. وجذب وجهها نحوه وتمتم:

"عيناك خضراوان... وثائرتان..."

أشاحت بوجهها وهي تقول:

"لا تفعل..."

وكانت تدرك أنه يحاول تقييلها، فصاح ثانية، وجرت يده

التي تكسوها الندوب على طول شعرها الأحمر وقال:

"هيا بنا نعود..."

وصل ستيليو عقب الغداء ليواصل رسم صورة رافينا، ولكنه بعد مضي ساعة ألقى بفرشاته، وخطا تجاه المائدة

ليختسي كوبا من عصير الأناناس المتلج الذي يخبه، ثم قال

بتجههم:

"إنني أتحدى يدي اليوم. هل ترغبين في كوب من العصير؟"

هزت رأسها وهي تسرخي على سور الشرفة، وقد تبين

لهمما أن الظبي لن يظل هادئا أثناء الرسم، لذلك

فضل ستيليو أن يرسمها وحدها بجوار السور، وساعده ذلك

عنى مواصلة عمله. ألقى عليها نظرة فاحصة طويلة وسألها:

"ماذا برعك؟ غدوت غريبة على الابتسامة. إنني أصر على

أن ترسم ابتسامة الموفاليرا على شفثيك وأنا أرسم

صورتك ..

قالت:

"المرء لا يستطيع دائما الابتسام .. انني أشكو من صداع خفيف .."

سار نحوها، بقميصه الأزرق الشاحب، وتطلع اليها بعينين تخالأا فيهما أضواء كهربائية اللون، وسألها:

"هل حقا أنت صديقة معي؟ ربما يكون قلبك بسبب لك ألما؟"

أجفت رافينا لنفاذ بصيرته، ورأت أن عليها أن تكون حريصة مع ستيليو .. فهو شخص جذاب، وعطوف، وفي هذه اللحظة أحست أنها في حاجة إلى قليل من هذا الضمان، وإلى كتف تريح رأسها عليه، لفجرد لحظات قليلة .. ولم تحتل نظرات الغواية التي تلالأت في عينيه فأشاحت بوجهها بعيدا عنه وشغقت ببصرها نحو الجبال، ومياه البحر التي تجري تحت البيت، وكانت تنبض مثل نبض قلبها، في موجات متعالية، وكان الجو مشبعًا بالحرارة، وكان عاصفة تنذر بالقدوم، قالت:

"الجزء ثقيل يدفعني إلى القلق .."

اقترب ستيليو منها وقال:

"إنها الرياح الشرقية الحارة التي تهب من افريقيا، وهي تثير أعصاب أي شخص غريب .."

قالت بحدة:

"كفى .. يا ستيليو .."

"أريد أن أقول إنها أثارت أعصابنا خلال الساعة الماضية .. أنت تعيسة يا رافينا وأنا أعرف السبب .."

ورسمت ابتسامة على شفتيها وهي تنظر إليه .. ثم قالت:

"لا تستطيع أن تعرف السبب بسهولة .. أرجوك يا ستيليو، اصحني في جولة بالسيارة .."

قال والأضواء الكهربائية تحترق في عينيه:

"على الرحب والسعة، ولكن ماذا عن زوجك؟"

"إن مارك في اجتماع مع صانعي الشراب، ولن يعود قبل ساعات، وأنا أريد أن أشعر بالريح تلمح وجهي .."

قال:

"أذن، هيا بنا .."

أمسك ستيليو بيدها، ومثل أطفال المدارس انطلقا بهيئتان درجات السلم ويخترقان الصالة، ويقادran باب البيت، ولم يلحظ أحدهما السيدة ذات الرداء الأسود وهي تتلصص عليهما، واقفة في الرواق، بنظرات تومض ومضا سريعا، ثم هرعت لتفصي لسيدتها بأن البادرونيستا انطلقت تجري من البيت يحدوها مرج القبرة، وهي ممسكة بيد الرسام الإيطالي .. وكان لون سيارته لوتس رماديا .. وأخذت تصابق الريح عبر الطرقات التي تخترق الجبل، وفي كل متحنى كانت رافينا تحسك أنفاسها، وتضمر أنها تطير في الهواء، ولن تفكر في ركوبها مرة ثانية، أما الآن فهي ترغب في أن تمتع نفسها، وكان ستيليو يهتل كلما لفحته تسمات الهواء، ويقول لها:

"إنها منعشة أليس كذلك؟"

ضحكت قائلة:

"إنها رائعة .. من الأفضل لك أن تكون سائقا لسيارات السباق .."

قدحها بابتسامة سريعة، وقال:

"إن الريح تلمح شعرك بالسياط .. ما رأيك يا رافينا أن نتوجه إلى الساحل .."

"لا .. لا .. إنه بعيد .."

"ليست المسافة بعيدة وأنت تركبين لوتي .. في وسعي أن أقدم لك شرابا مثليا في مسكني، وسأعود بك في الساعة السادسة .. هل أنت خائفة؟"

قالت ساخرة:

"منك ..؟"

"لا .. وأنا من زوجك .."

ويبدو أن شيئا اعتصر قلبها، ودفعها الشعور بالخوف من مارك إلى التمرد فقالت بلا اكتراث:

"يمكنك أن تقدم لي شرابا باردا .. انتظر .. دعني أفكر ثانية .."

قاطعها ضاحكا:

"أقلت الأمر من يدك، لقد بلغنا الطريق المؤدي إلى الساحل".

"كنت أود أن أقول لك أنني أفضل احتساء عصير البرتقال".
وأخذت السيارة تطوي الطريق الناعم المحاذي للطريق، وانقضت فترة قبل أن يرخي الخوف أصابعه التي أنشبت أظفارها بصدر رافينا. كانت تدرك أنها ترتكب جرما تجاه مارك، وقررت أن تخفي عنه زيارتها لفيلا ستيليو، ما يجعله مارك لا يتسبب في قلقه.

أخيرا، وقفت السيارة أمام فيلا رائعة الجمال، تقع في ميدان يضم عددا من المنازل الفاخرة، ورات سجا أبيض اللون عربي التصميم يؤدي إلى الشرفة. كان المنزل يبعث على الشعور بالبهجة، والمكان يناسب حقا فنانا غير متاهل. وضع ستيليو مرفقه على عجلة القيادة وسألها:

"حسنا... هل تدخلين الفيلا؟"

قالت:

"كيف لي أن أقاوم؟"

وانزلت تعادر السيارة، واستدار هو من الجانب الآخر، لينضم إليها، وارتقا السلم المؤدي إلى الشرفة، وفتح الباب، ودخلا غرفة واسعة وباردة مليئة، وأريكة هلالية الشكل مكسوة بالقطيفة، وبعض الزخارف النحاسية، ودولاب للشراب فارسي التصميم، ولوحات إيطالية تزين الجدران، وولاعة على شكل نجمة فوق منضدة صغيرة.

قالت رافينا بابتسامة:

"أنت مترف".

نظر إليها بحسرة وقال:

"كنت ثابا محروما، ذقت الفقر والحرمان في مطلع حياتي، اجلسي من فضلك، وسوف أسكب لك شيئا".
قالت بخفة:

"أريد أن أحتمي عصير البرتقال".

ثم جلست في أحد المقاعد الوثيرة، وامتزج لون فستانها الأصفر بلون قماش القطيفة البرتقالي الذي يكسو المقاعد،

ووضعت يدها على شعرها لتسوية خصلاتها، وألقى ستيليو نظرة عليها قبل أن يتوجه إلى دولاب الشراب وفتح أحد مصراعيه، وقال:

"لم يعد عندي عصير البرتقال... ألا تلتقين بي؟"
قالت:

"أفضل أن أحتمي مقويا ممزوجا بالثلج".

تطلعت إلى خاتم الزفاف الذي يزين يدها اليسرى، ثم نظرت في ستيليو وسألته:

"هل تعيش وحدك هنا يا ستيليو؟"

"أجل... ألا تشعرين بالأسف لي، هناك سيدة تأتي لتنظيف البيت وتلميعه وتقوم بطهي الطعام إذا دعوت بعض الضيوف، ولكنني اعتدت أن أتناول عشاءي في المطعم".

قدم لها الشراب الممزوج بالمقوي في كأس على شكل زهرة التوليب، ثم سألتها:

"دائما وحدك؟"

جلس على الأريكة الهلالية الشكل، ومد ساقيه حتى تقاطعا، ورفع كأسه بيده وقال لها:

"في صحتك! إن الرجل يناد على الوحدة، ولكن يوجد علاج واحد لها. في أي حال هل أبدو لك أنني من النوع الذي يستطيع أن يعيش حياة الرهبان؟"

امتست وهزت رأسها وقالت:

"كنت دائما أعتمد بأن الإيطاليين يتزوجون في سن مبكرة ليكون لديهم عائلات كبيرة".
قال:

"لكل قاعدة شواذ. خذي نفسك مثلا. أنت فتاة جميلة... وتتزوج ضد رغبتها".

تجمدت الابتسامة على شفתיها وقالت:

"ما جئت إلى هنا للتحدث عن زواجي وإنما أتيت..."
قاطعها قائلا:

"التسبب لفترة... لا داعي للتظاهر معي، رأيتك على حقيقتك وأنا أقوم برسم صورتك، وكيف يبدو شكلك عندها بنضم مارك دي كورزيو. أينما ونحن على الشرفة في

الكاراء، كأن الضوء يهرب من عينيك، وكأنك تتخلين عن نفسك.

وضعت كأسها على المنضدة، وقفزت واقفة على قدميها، وقالت:

"كفى، ما جئت الى هنا لتقوم بتحليل زواجي، أو مناقشة مشاعري الشخصية، ليس هذا من شأنك".

قال:

"هل تظنين ذلك؟"

ثم وقف بدوره ورأت سمة الجدية في نظرائه، ثم أردف يقول:

"التقينا على الشاطئ، وكنت جذابة، والتقيت بك ثانية في بيت دي كورزيو. ورأيت فيك فتاة تختلف تماما عن تلك الفتاة التي توجهت معي الى الكهف. في كل يوم منذ التقينا وأنا أحاول أن أنقل الأصواء الضاحكة التي تنلأ في عينيك الى اللوحة لكن هذا مستحيل! انها لم تعد هناك شيء غامض يحاول أن يقمعها".

ولجرح بقية الشراب ثم استطرد يقول:

"سيدتي، هل تتصورين أنني أحمق؟ هل تظنين أنني فبرت هذه الدنيا قليلا فلا أدرك حقيقة المرأة العسة عندما يقع بصري عليها؟"

"وهل تظن أنني جئت الى هنا لتقديم لي العزاء؟ وهل هذا هو الأسلوب الذي يستجيب به ربائك النساء الى سحرك؟"

قال لها:

"لكنك صرحت لي بأنك عسة؟"

وقام ليتناول سيكارة، ثم توجه ليخلق الأبواب الزجاجية التي كانت تسمح بدخول نسمة حارة جعلت رافينا تلهث أنفاسها، ولما عاد وقف الى جوار كتفها، شعرت بالتوتر، ولم يكن سبب توترها خوفها من دافع غريزي منه، وانما كانت تشعر بنوع من الود يضيئه عليها، والحنان يعتبر أخطر عاطفة عندما تكون المرأة في حاجة اليه. قالت:

"كل شيء يسوده الهدوء حتى جمع الحصاد هداً، والأشجار نسجت خيوطها بزرقة السماء الحارة".

تحدث قائلاً:

"كم أحب سماع بلاغة وصفك، لديك سمة تصيب المرء بالهوس لم أحدها من قبل في أي امرأة أخرى".

"هل عرفت نساء كثيرات يا ستيليو؟"

"أنا في الخامسة والثلاثين من عمري، وهناك له مكانته، لا بد أن يتعرف بالناس".

"أنا أسفة أنك تلقى المتاعب بسبب صورتني، وربما تنقص يدك منها قريباً".

"يجب أن أتخلي عنك لأتقلى عن الرسم، لقد فتنت بجمالك يا رافينا. أرجوك لا تغادري المكان. انني لن أفسدك، ولا أجبرك على أن تشاركيني مشاعري. أنا أعرف أنك فتاة وفية لزوجك حتى لو لم تشعري بالحب نحوه، فأت يوم .. ربما .. سوف تفحين لي بسبب زواجك منه".

تولتها رعدة خفيفة، ربما كان السبب زمجرة الريح، أو وميض في السماء دفعها الى أن تتراجع عن النواقد، وجعلها تقترب من ستيليو ليصطدما برهق، أغضت عينيها واندفعت ذكرى جاردي الى عقلها. كان رقيقاً، وحانياً عليها، واعتاد أن يقبلها في وجنتها حين عودتها من المدرسة.

طغرت الدموع من عينيها، والسابت على وجنتيها، بينما كانت السحب تبرق خارجاً، وهدير المطر يتدفق من عنان السماء، ويلطائر رذاذ منه على زجاج الأبواب المفتوحة، فسحبها بعيداً وأظلمت الغرفة، وبدا الهواء يهب بعنف، مسحت رافينا وجنتيها المبتلتين، وفتحت عينيها تشاهد العاصفة، وقالت:

"ما كان يجدر بي أن آتي هنا، الى متى سيدوم هطول المطر. أرغب في العودة الى البيت يا ستيليو".

فنظر اليها مأخوذاً وقال:

"لا أستطيع أن أعود بك في مثل هذا الجو - أنت لا تعرفين كم هي سيئة طرق الجبل حينها يكتسوها المطر - اهدأي وكوني طريفة. ان المطر المنهمر لا يدوم طويلاً، وسأعود بك بأسرع ما يمكن".

راحت رافينا تقطع الغرفة جيئة وذهاباً، وهي تسائل

نفسها: لماذا وافقت على المجيء معه؟ أدركت أنها أخطأت
ووقعت في شرك العاصفة، ويبدو أن غضب المطر لن يتوقف.
قال لها:

"احلسي".

وسكب لها شراباً طازجاً، احتسته، وشعرت برأسها يسبح
بخفة، والحرارة تدب في أوصالها. وزاد وجيب قلبها. كانت
خائفة على نفسها وعلى ستيليو. قالت:

"مارك سيغضب. انني لن أخبره بمجيئي معك الى هنا."
مال ستيليو نحوها وقال:

"لماذا في وسعه أن يفعل؟ علام يغضب إذا علم بالحقيقة...
بأننا شربنا... بأننا تحدثنا... بأننا أصدقاء..."
من الصعب تقليل هذا التصرف.

"حاولي يا رافينا... دعيني أفهم السبب الذي يدفع فتاة
مثلك أن تعيش في خوف من رجل. من واجبه أن يشعر بالحب
نحوك، وأن يرغب في إسعادك."

حاولت أن تبتسم ولكن محاولتها باءت بالفشل.
سألها ستيليو:

"ألا تخطئين فتتصورين الحب... جاذبية..."
قالت متسائلة:

"حب؟"

وجدت في المطر المنهمر كأنه سياط تلهب أرضية
الشرفة، فسارح ستيليو الى غلق الأبواب الزجاجية،
فتوقف تيار الهواء. قالت رافينا في هدوء:

"عندما يواجه القدر حياتك بقسوة، يتوقف إيمانك بالحب. لم
يطلب مارك مني حباً مطلقاً ولم يسألني الزواج منه الا
امثالاً لأسلوبه معي."

أمسك ستيليو بيدها اليسرى، وتحنس خاتم رفاقها،
وقال:

"لماذا؟ ألائك شعرت بالشفقة نحوه؟ ألائك لا تحتملين أن
تكوني سبباً في إيلا م رجل سبق أن لحق به أذى؟ رافينا... ان
زواجك منه يعد تضحية!"

بدا وجهها في ضوء العاصفة مستغرقاً في التفكير

وعينها مثل البرك الشوطة بالطين. أجل انها تضحية، ولا
يمكن انكار هذه الحقيقة، ومع هذا فانها لا
تسمح لستيليو أن يعرف على لحن حاجتها الى الحنان،
وعليها أن تحارب هذا الضعف الذي تشعر به في أعماقها، والا
سيصير مصيرها الارتقاء في أحضانها. قالت:

"عندما كنت طفلة وكان المطر يحول دون خروجي اعتدت أن
أردد أغنية يا مطر... يا مطر... أرحل بعيداً وعد ثانية
في يوم آخر. فهل تظن أن سحري سوف يفلح؟"
قال وأصابعه تقبض على أصابعها:

"أعتقد أن هناك فرساً تتحقق فيها الأمنية، ولم يحدث أن
التقيت شخصاً في وسعه أن يلقي بسحره مثلما تفعلين."

وفي هذه اللحظة ترددت أصداً رنين أجراس الباب في
أرجاء القسيلة. وزمجرة الرعد، وثألق المبرق فسي
عيني ستيليو عندما راح كل منهما يحدق في الآخر. كانت
عيناه تنذران بهجوم مباغت تردد صداد غير عيني رافينا.

واقعة أن مارك جاء بحثا عنها .
سار إلى الغرفة يتبعه ستيليو الذي بدا ضيحا إلى
جوار مارك، ونقر عصب في أحد صدغيه عندما استدار
ليواجه الرسام . قال مارك بصوت بارد تنبؤة حرارة
الفضة :

• أحب أن أقدم لي تفسيراً لهذا الموقف، ماذا تفعل زوجتي
هنا؟ •

كما المطر الشرفة ودقت الساعة جعنة الوقت وكأنها تريد
أن تنبه رافينا بأن مكانها في هذه اللحظة يجب أن يكون
في بيتها وليس الاستكانة إلى فتان فاسق .
سألت مارك :

• ماذا تفعل هنا؟ هل رأي أحدكم وأنا أعاذر الكازا
مع ستيليو؟ هل جئت إلى هنا لتأخذني بعيدا؟ •
رمقها بنظرة سوداء وقال :

• لا ... تخربت عرويتي في مكان ليس بعيدا من هنا، وأعرف
أن ستيليو فابريزي لديه تلفون فحكت أستاذ من الحديث
إلى الكراج . ولم يكن لدي أدنى فكرة أنني سأجد زوجتي مع
السنوبر .

قضت لحظة من لحظات الصحة التي تبدو فيها البراءة
وكانها آتمة، ولم يقطع الصمت سوى صوت المطر المنهمر ولم
تستطع رافينا أن تقاوم رغبتها في أن تختلس النظر
إلى ستيليو، ولما حاول ستيليو الكلام بدت نبرته وكأنها
تؤكد كل مظاهر الاثم .

قال ستيليو :

• كان الجو شديد الحرارة والرطوبة فرأينا أن نقوم بنزهة في
السيارة . إنني السبب في دعوة رافينا للمجيء إلى هنا
لتناول بعض المشروبات . ولما وصلنا فاجأتنا العاصفة وحاولت
أن أقنعها بأنه من الجنون قيادة السيارة عبر الجبال وسط هذا
السيل المنهمر . لو أن العاصفة لم تحدث ... •

قاطعه مارك قائلا :

• أكننت حملتها عائدا إلى البيت دون أن أعرف أنها كانت هنا
بصحبتيك . •

٧- ليلة العاصفة

سأل ستيليو متجهما :
• من يطرق الباب في مثل هذه العاصفة؟ •
ونهض واقفا عندما دق الجرس مرة أخرى، وأردف يقول :
• لا بد أن أجيب على الطارق يا رافينا . •
قالت :

• بالطبع . •
والتفت عيناها، وراودهما سؤال واحد
فهر ستيليو كتفيه في استخفاف وخطا خطوات واسعة،
وأرسلت رافينا سمعها عليها تلتقط صوت الزائر حينما
يفتح ستيليو الباب . وشعرت أنها مذنبه، فالإتهام الذي
سيوجه لها و لستيليو بأنهما عاشقان . وأن مارك جاء
سعيها وراءها . وشخصت ببيضها نحو الباب حينما لاح لها شبح
طويل بله المطر وقد وقف عند المدخل . وتحققت مخاوفها
العديدة .

قال صائحا :
• رافينا •
وكانت قطرات المطر تتساقط من فوق
شعر مارك الأسود لتستقر على عينيه وطففت نظراته
تفحص جسمها النحيل الفارق في المقعد الواسع المكسو
بالقطيفة . ولم تستطع رافينا أن تحرك ساكنا . وتركزت
عيناها على وجهه الصارم .
لم تصدق عينيها في بادئ الأمر، ولكنها كانت حقيقة

ونظر الى رافينا بنظرات مبهمة مدركا أنها كانت ستكتفم ما حدث وعندها تقدم خطوة نحوها، تراجعت والذعر يملكها، وكأنها تخشى أن يلمسها وقالت له يتخذ ساقر: "هل نخلق من هذا الأمر مأساة؟ أحتسيت كأسا ولم يكن سوى مقو بالتج."*

ولمح مارك كأس التبوليب فوق المنضدة الواقعة الى جوار المقعد الذي تجلس عليه، فالتقطها وراح يتشمسها، وأعاد الكأس الى مكانها وسأل ستيليو: "هل فرغت من رسم صورة زوجتي؟"

أجاب ستيليو: "فشل الرسم فشلا ذريعا، ظننت في البداية أن رافينا موضوع سعيد يصلح للرسم، ولكني الآن عرفت أنها امرأة تعسة ولست أستطيع أن أنقل الى القماش حقيقتها، ليس في وسعي أن أفعل المزيد من الرسم مثلما عجزت أنت على أن تستحوذ على قلبها يا سنيور دي كورزيو."*

واجه الرجلان كل منهما الآخر حينما تألق بريق ضوء عبر الغرفة، فتطلع مارك اليه وقال ساخرا:

"هل تتصور أنك استحوذت على قلبها؟ أنت تخدع نفسك يا سنيور، إن الرجل الذي يستحوذ على قلب رافينا بعيد من هنا، يمكنها أن تغفر له خطاياها، والمرأة تستطيع أن تفعل ذلك من أجل الرجل الذي تحبه."*

وتطلع ستيليو نحوها وبدت الحيرة في عينيه وقال: "رافينا"

قالت وهي تتطلع الى مارك:

"أرجو العودة الى البيت، لن أخشى طرقات الجبل، اتصل بالكراج هاتفيا ودعهم يصلحون سيارتك."*

قال ستيليو بصوت حاسم:

"خذ سيارتي، اليك المفاتيح، سوف أستاذ زورقا يحملني غدا الى الكازا لأجمع أدوات الرسم سوف أعود بسيارتي الى بيتي."*

وكان ستيليو يتخدى مارك في أن يقود السيارة

اللوتس في خضم العاصفة، ويخترق بها الطرقات التي تتعرض لانهباء التربة نتيجة للسيل المنهمر ثم انتقل ببصره الى رافينا وكانت عيناه جامدتين.

ولم تتفوه رافينا بكلمة، كانت واثقة أن مارك سوف يقبل التحدي اذ قال ستيليو:

"هل لك أن تغير زوجتي معطفا؟"

وأحنى الرسام رأسه بالاجاب، وغادر الغرفة ليحضر معطفا.

وحرك مارك مفاتيح السيارة ببطء، وسأل رافينا:

"هل أنت عصبية؟"

"وهل يهمك لو كنت عصبية؟"

وحملق فيها وشرق ضوء غريب في عينيه وقال:

"أنا معجب دائما بشجاعتك، الأمر الوحيد الذي لا يمنع دهشتي هو أن فتاة لها مثل شجاعتك تقع في حب جبان."*

وتوقف مارك عن مواصلة الكلام حينما عاد ستيليو وهو يحمل معطفا واقفا عن المطر، وكانت عيناه مضطربتين وقال:

"سنيور، ألا تمكث هنا حتى تهدأ العاصفة، هناك طعام في الثلاجة."*

أمسكت رافينا المعطف وقالت:

"ستيليو، عندما يصدر مارك قرارا لتنفيذ امر ما، فلا أحد يمكنه أن يثنيه عن عزمه، اذا سألتك يا مارك ... كلا لن أتوسل شيئا ..."

وسارت الى الباب، وبدت تخيلة وهي ترتدي المعطف الغضفاض الطويل، وقالت:

"ألا نذهب يا مارك؟ سرعان ما يهبط الظلام."*

واستمر هطول المطر بينما أخذت عجلات السيارة تقادر أرض الفيلا وحدثت رافينا بنظراتها عبر النافذة التي راحت المساحات تزيل الماء اللاصق فوق سطوحها،

وكان مارك يمسك عجلة القيادة بثقة تامة، ولم يتفوه بكلمة وانما كانت نظراته مثبتة على الطريق الممتدة أمامه.

وسار بالسيارة نصف ساعة، توقف بعدها عند مكان مجاور أرضا مزروعة بالحشائش تقع تحت الجبال، ثم

استدار نحو رافينا وثلاثاً ضوءاً على وجهه المشوه بالندوب،
وقال بوحشية:

"لا أستطيع أن أفعل ذلك."

وتطلع إلى يديه اللتين تقلصتا على عجلة القيادة فبدت
المرووق واضحة واستطرد يقول:

"سيكون من الجنون في مثل هذه الليلة."

وتركز بصر رافينا فوق وجهه، وأدركت أي ذكرى
مخيفة تسيطر عليه بضراوة، وتحول دون مواصلة قيادة
السيارة، فقد تذكر دريسبي حينما وقع في شرك حطام
السيارة الأخرى. وفجأة جذب المعطف عنها، فبدأ جسمها
صغيراً، وضائعا في ظلامه، وقال لها:

"يجب أن نمكث هنا قليلاً. لا... تذكرت الآن، يوجد كوخ
راع على مقربة من هنا. تعالي، يمكننا أن نتناول عشاءاً من
لحم الضأن المسلوق إذا أسعدنا الحظ."

وراحا يقطعان الحقل بسرعة تحت وابل المطر المنهمر وقد
التفت ذراعاً حول وسطها، بينما كان المعطف يقطر في
الهواء. ثم توقفاً أمام كوخ يتكون من غرفة مستطيلة لها قبة
مخروطية الشكل كالصنوبر، وغالج مارك الباب فافتتح
بسهولة. كانت النار خائبة ولا يوجد أي قدر فوق المدفأة،
وكشف وميض البرق عن وجود أريكة خشبية عريضة عليها
ربطة من فرو الغنم، وكُرسي مستدير بثلاث أرجل، ومراوطة
مستندة إلى الجدار، وهبت الرياح فاهتزت لها المراوطة
وسقطت على الأرض، مما دفع رافينا إلى أن تقفز
بعضية.

قال لها مارك:

"ادخلي"

وهو يشعل عوداً من الثقاب، وطفق يتجول في الكوخ المهجور،
ورأى بقايا شمعة متبسة هي فتحة زجاجة ماسكها
وتطلعت رافينا إلى مارك وقد وقف يحمي لهب الشمعة
بيديه من تيار الهواء. قال لها:

"أقفلي الباب."

قالت وهي ترتجف:

"هل تنوي المكوث هنا؟"

تركها ليغلق الباب بنفسه، ثم قال:

"لست هناك بديل لذلك في الوقت الحاضر. إنه مكان غريب
بصالح لا يواءم اثنين في ليلة عاصفة كهذه. يمكننا أن نشعل
النار... هل تخشين من وجودك وحدك معي، في حين وانتك
الجرأة للذهاب بالسيارة وسط العاصفة؟"

"أنني أخاف من وجود فئران."

قال بالسلامة ساخرة:

"فئران الحقل... لا تؤذيكم."

وعثر على كوة في الجدار، وضع فيها الشمعة، التي راحت
تلقى بضوئها على مارك. وهو يسعى نحو المدفأة ليوقد
فيها ناراً. وقال:

"الخشب جاف، وسوف يحترق جيداً. تعالي يا رافينا. سوف
نتمتع بدفء عائلي قبل أن ينسلج نور الصباح."

ودست يديها المضطربتين في جيوب معطف ستيليو، فلم
يحدث لها من قبل أن انفردت تماماً بمارك، حقاً إنه
زوجها، ومع ذلك فهو الرجل الوحيد الذي يجعلها تشعر
بالخجل، وتذكر أدراكاً تاماً أنها امرأة. وانتابها الوهن،
فاستندت بجسمها إلى الباب الذي كان يهتز تحت وطأة عصف
الرياح. قال لها مارك:

"لا تقف هنا في مواجهة تيار الهواء. تعالي يا رافينا."
امتثلت لطلبه، وكانت مسلوكة الإرادة، وأحسست بيديه
تلمسان شعرها. فقال لها:

"شعرك مبتل من المطر. سأجعل النار حارة."

وكانت خصلات شعره تنسدل مائلة فوق عينيه، وأحسست
باغماء خفيفة.

وعندئذ أدركت ما يريد منها في هذا المكان الغريب الذي
يقع في البراري، وعندما بدأت ساقها تتهاوى، قام سريعاً
يرفعها إلى الأريكة، وأرقدها فوق فروة الغنم، وأراح خصلات
شعرها من فوق حينها، وقال:

"حسنًا... أنا لست غاضباً من وجودك مع فابريزي. أنت
طفلة مسكينة ممزقة الأعصاب."

"مارك".

"ولا كلمة... استريح قليلا حتى أشعل النار..."

وتوجه الى المدفأة، وبدأ في قطع الحطب، وراح يبحث عن ورقة في جيبه يضعها تحت الحطب حتى تساعد على اندلاع النار، ولمحت رافينا أنه يسحب خطايا من جيبه، ويطلق زفرة حارة من صدره، ثم كوره، ووضعها تحت الخشب، وأصرم النار فيه، وبينما كان الخطاب يحترق سمعت الخطاب يصدر طقطقة، وكان مارك يحدق في اللهب المشتعل وقد ران عليه السكون.

فجأة استوت رافينا جالسة على الأريكة، وأرادت أن تعرف محتوى الرسالة التي كانت تحترق في المدفأة - سألته: "مارك... ما هذا الخطاب؟ أرجوك انظر الي... أخبرني..." انتصب قوامه مشدودا، وعندما استدار كان هناك أسود اللون يكسو وجهه، وقال بصوت خلا منه الدفء: "عما أخبرك..."

انزلت رافينا بجسمها تترك الأريكة وقالت: "كلا أخبرني الآن..."

ونظرت الى النار التي كانت تحرق الرسالة، وحولتها الى رماد وأحست بدقات قلبها تتدافع بسرعة وقال لها بخشونة: "إنه خطاب مرسل الي رودري برينين، عثرت عليه في غرفتك منذ فترة. خطاب لم تبعثي به أوردت فيه مقابلتك له يوم زفافنا. هل أردد على مسامحك كلماتك؟" رفعت رافينا يدها وتصبست رقبتها وسمعت صوت مارك رقيقا تشوبه نبرة قطرة:

"احترق الخطاب، ولكن الكلمات لم تحترق. كانت تقول "أرجب في رؤيتك مرة أخرى وأنا لست أسفة، حتى لو غضب مارك..."

إن تلك الساعات التي أمضيتها معك ساعدتني على مواجهة موقف بالغ الخطورة. إن روابط الحب بيننا تتطلب السرية اللامة. انني أتعلم بها كلما أحسست بأنني أغرق في عمق الماء الذي أتردى فيه، صمت ثم أردف يقول بغضب:

"هنا توقفت الرسالة. لم تحاولي إتمامها. هل شعرت بأنك لا تحتملين إرسال خطاب اليه في حين كنت لتتوقين دائما الى صحبتها؟ إن الكتابة عن تلك الساعات التي أمضيتها معك في يوم زفافنا لا بد أنها عذبتك حتى أنك كورت الرسالة وألقيت بها. ولم يتطرق الي ذهنك أن زوجك قد يعثر عليها فيلقطها. وقضها من باب الفضول..."

حدقت رافينا بمصرها في مارك، وأدركت سوء الفهم الذي النبس عليه عندما قرأ عبارة "تلك الساعات التي أمضيتها معك..." كلمات تحمل معنى واحدا عند مارك، فقد ظن أنها هي و رودري عاشقان.

لا بد من سبيل لنفي هذه التهمة، ولكنها رأت صورة المראה التي ارتسخت على فمه، وأنه على استعداد لأن يزدري أي شيء تقوله، وانتابها رجفة حينما زمجرت الريح حول الكوخ. فقال لها:

"أنا أسف... ليس لدينا أي طعام نأكله، أو شراب نحتسيه، وخير لك أن تكوني جائعة من أن نتورط في حادث على طريق الجبل..."

وبحث مارك في جيبه، وأخرج علبة تبغ، واستطرد يقول:

"إن واحدة منها سوف تصيبك بدوار. هل يفسايحك إذا دخلت لقافة؟"

قالت بصوت يشوب نبرته اليأس:

"أرجوك، يمكنك أن تدخن..."

أخرج سيكارة، وأشعلها، ونفث الدخان دون أن يرفع بصره عن عينيها، ولم تحتمل قوة نظراته التي تحاول أن تقرأ ما يدور في عقلها، وسارت الى المقعد المستدير ذي الأرجل الثلاث، وسحبتة قريبا من النار، وجلست تحيطه وراحت تدفئ يديها.

قالت:

"أنا لست جائعة... وأنا أريد قنجانا من الشاي..." وتصاعدت حلقات الدخان في الهواء، وكأنها علامات تساؤل، وقال:

لأنونا سوف تقلق علينا . لماذا لم تبحثني في البيت . كان في وسعي أن أعود إلى البيت وحدي . لكن الأمر لا يهم كثيرا .

قالت رافينا :

سوف تغامر بحياتك ؟

مز كتفيه باستخفاف وقال :

ولن أغامر بحياتك يا عزيزتي . لا تنظري بانزعاج ، لست بصدد أن أعلن عن مدى حبي لك . أنت صغيرة ، ودرستي كان صغيرا ، والحياة حلوة ، حتى لو امتزج النور المر بالقرنفل .

سألته :

هل كان درستي يشبهك ؟

لم يسبق لها أن طرحت عليه هذا السؤال من قبل ، ولكنها الآن تشمر بدافع قوي إلى أن تعرف ذلك ، وتطلعت إلى زوجها وبالرغم من الندوب الرهيبة التي تشوه وجهه إلا أنه بدا لها أنيقا في ضوء النار المشتعلة .

مز رأسه بالإيجاب وقال :

أجل كان يشبهني . يجب أن أريك صورته .

وشد على شفتيه وهو يخرج محفظته ، ويفتحها ، ويسحب منها صورة صغيرة ، ويناولها إياها . وراحت تتفحص صورة الطفل ذي الشعر الأسود . عيناه تتلألآن مرحا ، وصفحة وجهه تعكس صورة وجه أبيه ، قبل إصابته في الحادث . وطفقت رافينا تتأمل الصورة فترة طويلة ، وراحت تكافح الدموع التي أوشكت أن تطفر من عينيها . الآن فقط أدركت السبب الذي دفعه إلى البحث عن الغناة القريبة من قلب رودري . ليحبرها على الزواج منه هو .

.. ومنذ عهد هيلين

.. كان على أن تدفع الثمن ، ففي وسعها أن تتذوق المرارة مع حلاوة الحب . وعندما أعادت له الصورة تلاصت أيديهما ، وتذكرت أنهما وحدهما في الكوخ .

قالت له :

يبدو أن الريح بدأت تهجد في الخارج .

ولكن العاصفة كانت لا تزال تصفق الباب ، والسناج يتساقط مبتلا من مدخنة المدفأة فابتسعت بعصبية ، وطفقت توتر كتفها باستخفاف .

قال مارك :

أنت متعبة . الخدي إلى النوم . إن الأريكة تصلح للنوم بل هي خضنة ولكنها نظيفة .

لم تنهض رافينا من فوق المقعد وسألته :

وماذا عنك يا مارك ؟ أنا مستريحة هنا بجوار النار .

قال :

الخطب أوشك على أن يزوي . وعندما تحمد النار سيزداد البرد في المكان . وأفضل أن تتدثري وأنت نائمة فوق الأريكة . تعالي .

ومد إليها يده ليساعدها على التهوض ، فقالت له بتردد :

لا يمكنك الجلوس على المقعد . إنه منخفض وأنت طويلة .

سأكون بخير . النساء يتجتمعن بنعمة القلق .

قالت :

إننا نستطيع أن نجلس سويا على الأريكة .

توردت وجنتاها بحمرة الخجل ، وكأنها عروس في ليلة زفافها ، واستطردت تقول :

لا نستطيع أن نتجول في الكوخ طوال الليل . لن يطرق النوم أبغاني وأنا أراك لا تقوى على الرقاد .

قال ضاحكا :

هل أنت الأنسانة التي تفكر في ؟

وفجأة انتصبت قائمته أمام المقعد المنخفض التي كانت تجلس عليه ، ورفعها بذراع واحدة واستطرد يقول :

لا أستطيع أن أقاسمك الجلوس على الأريكة . فسرعان ما يتأبك الذعر ، وحتى الآن ما زلت عصبية من لمس يدي .

أدخلت رافينا قدميها في فروة الفم لتشمر بالدفع ، وألقى مارك بأخر قطعة حطب في المدفأة وفي هذه اللحظة انطفأت الشمعة ، وعلى ضوء النار المشتعلة عاد وجلس إلى جوارها ، وجذبها إلى كتفه ، وراحا يتطلعان إلى النار التي أخذ لهيبها يخبو تدريجيا .

وبدأت أصوات الريح تتلاشى، وبينما استغرقت رافينا في النوم، ورأسها مستقر فوق كتفه المريحة، وأمضيت ليلة غريبة، وعندما استيقظت رافينا عند الفجر، وجدت نفسها بين ذراعي مارك، ووجهها يتمتع بشفاء عنقه، وظنت وهي نصف حائلة أنها في برج الفارس، ولكنها أدركت الحقيقة عندما أحاطت تماما ورأت كوخ الزاعي وبقايا الرماد في الحديقة.

تركت بصرها يعود ليستقر على وجه مارك الذي كان مستقرًا في النوم وقد استند بظهره إلى الطاولة، ولما كان البرد الشديد قد زحف إلى الكوخ أثناء الليل، فانه جذبها بذراعه وضمها إلى صدره بلمس الدفء، فلم تشعر بأدنى خوف منه.

والآن أدركت كيف يكون الرجل غير محمي وهو في قبضة النوم. كان شعره مشعثًا، وذقنه التي كساها الشعر زرقاء وقوية، وشفتاه صارمتين، ووجنتاه تبرزان التجاويف تحتها، أما ندوبه فلم تنتقل إلى ابنه، وإنما ورث عنه الكبرياء والعاطفة.

ملكها الذعر، فأسرعت تسبل رموشها، وشعرت بذراعيه تشتدان حولها عندما بدأ يستيقظ، وأطلق زمجرة، واستدار بوجهه وهمس قائلاً:

"يا حبيبتى!"

لم يسبق له استعمال مثل هذه الكلمة من قبل، نفذت من فمه ناعمة تشويها الأنفة والمودة وعرفت أنه نصف حالم، ولا يتفوه بها انسان الا للمرأة التي احبها ثم فقدها.

فتح عينيه وتطلع إلى رافينا، وفي الحال بدت فيهما نظرة الحارس الذي يدوذ عن أملاكه، وفجأة تبين المكان المحيط بهما، فأطلق سراحها بسرعة، وانتفض واقفاً على قدميه، وقال:

"يا له من مكان كئيب، هيا بنا يا رافينا، المطر قد توقف، وهاهنا الوقت لأن نعود إلى البيت."

تركت رافينا الأريكة، وجدت ذراعيها أمامها، ثم قامت بتسوية شعرها بيدها، وصاحت:

"انظر بالفوضى في مظهري!"

وطفق مارك يحيل بصره فيها، ولاح التحهم على شفتيه ثم قال:

"يبدو عليك وكأنك أمضيت ليلة مضنية فوق سطح قرميدة!"

قالت:

"انظر إلى نفسك أيضاً!"

وسبقته إلى مغادرة الكوخ لتستقبل هواء الصباح. رأت السنة من لهب الشمس في الأفق، وسمعت الطيور تشدو على الأغصان. سارا فوق الحشائش المبتلة، ووجدتا السيارة مغطاة بقطرات المطر. مسح مارك الزجاج قبل أن يتخذ مكانه وراء عجلة القيادة، ويستقر إلى جوار رافينا، واتجها صوب أشعة الصباح المشرقة.

بدأت نسبات الفجر تهب عبر التواقد، وبدأت الزهور متفتحة، وامتزج شروق الشمس بأمواج البحر ليصنعاً صفاً لوحة رائعة التكوين. وعندما سألتها مارك إذا كانت تحب أن يكتشف غطاء السيارة، ابتسمت موافقة، والتقطت أنفاسها عندما أخذ الهواء يداعب شعرها المتطاير. انهما يستحقان مثل هذه الرحلة الصباحية، بعدما اقتسما سوية ليلة غريبة أمضياها في كوخ كئيب وثاماً على أريكة خشبية.

وفجأة رأى مارك شجرة اقتلعتها الرياح من أرضها، تعترض الطريق، فأوقف السيارة سريعاً، وكان من الواضح أنه لا بد من المرور بحفاضة الطريق شديدة الانحدار إذا ما فكر في أن يدور بسيارته حول الشجرة. ومال نحو رافينا وفتح لها الباب المجاور لها وقال لها:

"من فضلك اذهبي وحدك سيراً على الأقدام. لن أعبر بسيارتي حول الشجرة ومعك راكب!"

"ولكن يا مارك..."

قال:

"لن مناقش الأمر!"

ودفعها خارج السيارة، واستطرد يقول:

"سيرى حول الشجرة... وانتظريني على بعد خطوات منها!"

قالت:

"أنت السيد"

امتثلت لأمره، لم يمس مارك حطام السيارة الأخرى، والمخاطر التي اجتازتها، ولن يجرؤ على أن يجتاز مخاطرة أخرى.

وعندما سارت رافينا، واستدارت حول الشجرة، تبين أن الحسافة التي ستهربها السيارة بالضيق، وعلى مارك أن يجتازها بحذر شديد، فقفر قلبها بين ضلوعها. وراودتها الرغبة في أن تقفل عائدة إليه، وتتوسل إليه ألا يخاطر بحياته، وفي وسعه أن يترك السيارة مكانها ويفلق أبوابها، ويطلب من ستيليو الحضور لاستعادتها من هذا المكان، لكنها ما كادت تبدأ في العودة حتى رأت مارك يدير محرك السيارة، ويسير بها بين نهاية أغصان الشجرة وخافة الجبل.

تسمت قدما رافينا، وبدت كالتخال الأصم، لا يتحرك منها شيء سوى شعرها الأحمر المتطاير. وتوقفت أنفاسها، وهي ترى السيارة تنسل من الحضر الضيق لتنتقل إلى الطريق الواسع، وتتوقف إلى جوارها، ويفتح مارك لها الباب، وينظر إليها نظرات متسائلة ويقول لها:

"ادخلي."

وقفت جاثمة العينين، ولم تتصور أنه يخاطر بهذه الطريقة، فالتابها غضب شديد هزها من رأسها إلى أخمص قدميها. قالت له:

"لماذا تشدني إلى حياتك؟ إذا كنت ترغب في أن تعيش مع أشباحك، فلماذا لم تتركني مع جاردري؟ أنه سوف يهتم بي."

"رافينا..."

وراحت تبعد عن السيارة، ثم بدأت تجري في كل اتجاه، ولم تكن تكثر لها قد يحدث، وسجعت وراءها صوت خطوات تقفني أثرها، وأخست بحسرة في حلقها عندما أطلق مارك على عنقها، وأمسك بها:

"رافينا... أنا آسف أنني أفرغتك."

أقلت بنفسها عليه وقالت:

"أنت لم تفزعني، ولكنك أريتني كيف يبدو رواجنا في صورة مسرحية هزلية ساخرة جوفاء. لم يكن شيئا غير ذلك... ليس هناك حب ولا عاطفة. لا شيء. اليتة سوى الذكريات التي تحياها أوه... لماذا لا تتركني وحدي؟ هل تعرف يا مارك ماذا فعلت بي؟ هل يهيك ذلك كثيرا؟"

هزت رأسها وانعكست أشعة الشمس على شعرها فبدأت متألعا بينما كانت عينها قد فقدتا ظلالهما واستطردت تقول:

"عرفت الآن إلى أي مدى أنت تهتم بي، لن أعفرك... مطلقا."

وتخلصت منه... وعادت إلى السيارة، واستقرت في مقعدها، وكان الصباح مسمعا بجمال البكور، فلم تعد تسمع زقزقة الطيور، ولم تعد ترى ورقة السماء، أو المياه الفضية للمحيط، ولم تكلف نفسها مشقة التطلع إلى مارك وهو يتخذ مكانه إلى جوارها، ليقود السيارة. كان وجهها باردا، ولم تعد شفاتها ترتجفان. تملكها تحفظ بارد، فلم تعد ترغب في التحدث أو حتى سماع أي حديث. واحترم مارك صمتها، وهو يتخذ طريقه إلى منزل السرو.

مرت الأيام بعد ذلك خاوية. لم يأت ستيليو إلى البيت، وخلال النهار كانت تقوم رافينا بجولة في القرية، وترتقي النمل حتى تبلغ قمته، أو تستلقي في تكاسل على الشاطئ، وتسلمت رسالة من جاردري، وأجابته عليها فوصفت له كاسيل مونتي باستفاضة، ولكنها كانت مقتضبة في الكتابة عن حياتها مع مارك. وسوف يعزو سبب اقتضاها إلى خجلها الطبيعي، وفي ختام الرسالة بعثت تمنياتها الطيبة إلى رودري، ولم تستطع الكتابة إليه بعد تلك الرسالة التي وقعت في يدي مارك.

ولم يحاول مارك الإشارة إلى الرسالة الناقصة ثانية، وكانت تدرك أنه قرأها مرارا قبل أن يلقي بها إلى النار، وأنه يقتبس منها عبارات كتبها كاملة، من بينها عبارة "تلك الساعات التي أمضيتها معك". كيف تستطيع أن تقنع مارك بأن الحديث وحده هو الذي صلا هذه

الساعات التي أمضتها معه.

اتخذت رافينا طريقها إلى مكتب بريد القرية، لتبعث برسالتها، وفي طريق عودتها مرت بمنزل جلست ببابه سيدة ترتدي شالا أسود اللون، وتصنع إحدى شرائط الزينة، فتوقفت لتبدي إعجابها بالشريط، وسألتها إن كان في وسعها شرائده، دعته السيدة إلى داخل البيت لتلقي نظرة على عينات مختلفة من صنع يديها، فاشتريت ياقة جديدة، وزوجا من الأساور.

وقالت الحصة إن اسمها فيرتيويلا، وطلبت من رافينا بابتسامة وقور أن تمكث قليلا وتتناول قنجانا من القهوة معها، وكان ارتياح طرقات القرية جعلها تشعر بالظما، فجلست إلى مائدة تكسوها المرأة بوشاح من الحرير الأزرق، وانطلقت المرأة بسرعة تجول في مطبخها الصغير، وتعود بالقطائر لتقدمها لرافينا. فكانت لذيدة.

قالت رافينا:

"يجب أن تعلميني طريقة عمل الفطائر. اعتدت طهو بعض الأطعمة قبل زواجي. ويجب أن أعيد المحاولة ثانية وتحذوني الرغبة إلى غزو المطبخ في الكازاء، ولكن دونًا جوكاستا تدير كل شيء، وأنا لا أحب أن أ تدخل في شؤونها."

وخذت فيرتيويلا في وجه رافينا وانقابتها الدهشة لهذا التبا الجديد، ثم قالت ببطء:

"أنت تختلفين عن سنيورا دوناتا فهي كانت تدير كل شيء، ولم تحاول أن تشتري مني أحد الشرائط لتزين بها ثوبها بل اعتادت أن تشتري ثيابها من روما وكانت أنيقة ومحبوبة جدا."

قالت رافينا بهدوء:

"رأيت صورتها، كانت غائنة."

قالت فيرتيويلا:

"كانت تبدو سيدة عظيمة."

وأحست رافينا بتيرة ساحرة في صوت فيرتيويلا، كما أن نظراتها كانت تدعو إلى التساؤل. وفتحت فيرتيويلا صندوق سكاثر موضوعا فوق

المائدة، وتناولت علبة أوراق الكوتشينة:

"إنها سيدة عظيمة مثلك، هل تحبين أن أقرأ طالعك؟"

ولمعت فيرتيويلا الورق وانكفأت الصور على وجهها

فوق المائدة، فذق قلب رافينا وهي تقول:

"أنت تعنين... أنك تريدن قراءة خطي؟"

هزت المرأة رأسها بالإيجاب، وبدت في صورة امرأة عجربة

بوجهها الذي لفته أشعة الشمس، وشالها الأسود الذي يكسو

رأسها، وكانت عيناها مسطنتين على وجه رافينا، وقالت

لها:

"ألا تخافين من قراءة الورق وبما قد يكشفه لك؟ وألا يراودك

البشك فيما يقوله لك؟"

هزت رافينا رأسها بالنفي وقالت:

"أبدا... أنا سلتية، وهذا معناه أنني لا أسخر من السخر

"أذن أقبلي ثلاث ورقات لتبدو صورها أمامي

امتثلت رافينا لطلبها، وقامت مضيقها بفحص

الأوراق، وكان الهدوء يسود البيت إلا من بعض الأصوات التي

تأتي من حفيف الحطب الموجود فوق السطح، وبين لحظة

وأخرى كان الأتان يرفس الحربط وكأنه يتجملل من صحبتته،

وأخيرا قالت فيرتيويلا:

"آه... هناك احتفال ينتظر يا سنيورا. هل تحبين؟ هناك

مهرج في أول ورقة وقع اختيارك عليها، وهو مستغرق في

الضحك. أجل، احتفال. وقت طيب لك."

ابتسمت رافينا وقالت:

"ربما يكون احتفال مادري روزاريا الذي سيقوم

بمشاهدته."

"أنت والسنيور..."

"أجل. إنه يرغب في أن نذهب إلى هناك هذا العام."

هزت فيرتيويلا رأسها، ثم ركزت عينيها السوداءوين

على الورقة الثالثة، وكان الورقة الثانية لم تثر اهتمامها

كثيرا. وتمتعت هائلة:

"هناك طائر بأجنحة سوداء، آه، إنه نذير نحس يا سنيورا!"

من المحتمل أنه يعني . . .

وتعملت قليلا لنفحص وجه رافينا التي سألتها:

"ماذا يمكن أن يعني؟ أرجوك أخبريني."

راحت فيرتيويلا تخطط الورق ثم قالت:

"أوه، وقت غير سار، ربما أخيار سيئة، آه، ولكن هذا مجرد

تسلية، ويجب عليك ألا تأخذي الأمر باهتمام بالغ."

وقفت رافينا وقالت وهي شاردة الفكر:

"أبداء، يجب أن أعود إلى البيت، أشكرك على شرائط الياقة

والأساور، ستبدو جميلة على ثوبي الأخضر."

وفي طريق العودة إلى الكازاء أخذت الأفكار تطن في

ذهنها حول ما قالته أوراق الكوتشينة، وحاولت أن توحى

لنفسها أنها مجرد تسلية، ولكنها ما كانت تقترب من منزل

السرو، حتى خلق طائر موحش أسود اللون في كبد السماء.

كان الطائر الأسود الموحش الذي رآته في الورقة التي

قلبتها أمام فيرتيويلا.

وعندما دخلت فناء البيت وجدت مارك يقف في ظلال

أحدى فجوات المنزل، ينفت لفاقة تبغ، أسرعت نحوه، وهي

تفكك بالطرد الصغير الذي يحتوي على شرائط الزينة، وقالت

له:

"هالو."

وأرادت أن يضع ذراعه حولها، وأن يطرد دفء رجولته

البرودة التي تملكثها منذ لحظة وجيزة، ولكنها كانت تشكو

من البرودة نحوه لعدة أيام مضت ولم يبذل أي محاولة لكي

يلمسها، سألها:

"أين كنت؟"

قالت:

"ذهبت إلى القرية واشتريت بعض شرائط الزينة."

وأحست بشيء يعتصر حلقها ويخنقها، وبدأ لها أنه يدرك

حاجتها إلى الراحة، ثم استطردت تقول:

"اشتريتها من سيده تدعى فيرتيويلا، جلست إليها

واحتسيت فنجانا من القهوة معها."

قال وهو ينفض رماه السيكرة:

"حسنا أنا سعيد لأنك أقمت علاقات صداقة مع بعض الناس."

أرخت جفنيها وأحست بالدموع تطفر من عينيها فدخلت

وعبرت الصالة التي تؤدي إلى درجات السلم، وفي هذه اللحظة

لم يبد لها منزل السرو غريبا عنها أو وحيدا فوق الجبال.

الذي دار بين رافينا وضيوفها، ونظراتها مسلطة عليها، ولكن رافينا هربت من نظراتها ليستقر بصرها في الشراب الذي يراقص في كأسها، وانتابتها رغبة مفاجئة في أن تمتطي جوادها وتنطلق به.

أسرعت إلى غرفتها، وبدلت ثيابها، وارتدت سروالا وقميصا، وعققت شعرها، وطلوته تحت قمعتها، وبعد عشر دقائق امتطت صهوة جوادها، وانطلقت إلى رحاب الشمس التي كانت لا تزال تفيض على الكون بأشعتها.

كانت هذه الأيام حارة وطويلة، ولكن الريح كانت تهب دائما عبر السهل الواسع المعشب المطل على البحر، وكان من دواعي البهجة أن يرباض المرء بجواده ليتنسم الهواء المفعم برائحة نفاذة، وأحسست رافينا أن الجواد يطير بخيلاء تحذوه سعادة لا تقل عن سعادتها وهو يخطئ إلى رحاب الهواء الطلق، حتى بلغا حدود السهل، وعلى حين فجأة طارت قمعتها من فوق رأسها، وكان لزاما عليها أن تفرجل لتسعيدها، ولكن الهواء حمل القبعة بعيدا حتى استقرت عند أكمة الحشائش تقع على حافة المنحدر الصخري الشاهق. وعندما انقضت على القبعة تمسكها بيدها، لمحت عند المنحدر رجلا وفتاة يتحاذيان الحديث، وكانت الفتاة ذات شعر أسود اللون يتطاير مع نسمة الهواء، وتحدث باهتمام شديد معه، وفجأة أحاطت عنقه بذراعيها، ودفنت وجهها في وجهه، ولم يدفعها عنه، وإنما أخذ يضمها إلى صدره.

كان العشب يبدو أطول من الاثنين، فركعت رافينا وراحت تحقق فيهما بعينين شابتها برودة الثلج. إنها تستطيع أن تتعرف إلى الرجل في وسط أي زحام، ولا يمكن أن تخطيء شخصيته وهو واقف مع الفتاة.

نهضت رافينا وأبتعدت وتذكرت الفتاة التي كانت بين ذراعي مارك. إنها الفتاة الخافية القدمين التي شاهدها في المطعم حيث قامت على خدمتها بتقديم أطباق السردين. أحسنى الجواد رأسه يلتهم العشب، وهيئتها أراحت رافينا رأسها على سرجه أدار رأسه، ووهبها نظرة حنان، وكأن يهجنها المؤودة انتقلت إليه.

٨- خيانة في العيد؟

كانت أشجار الكروم مثقلة بعناقيد العنب. وكان عصيرها حلوًا، لكن رافينا أحسست بمزارة عندما تذوقته لأن العناقيد لم تكن معدة بعد لعصرها. الجميز أينع فوق الأشجار، وحدائق الليمون تفوح برائحة نفاذة. كل شيء مفعم بالحياة يحمل رافينا على الهروب إلى المغارة حيث تقرأ كتابا أو ترطب أصابعها في النافورة، وتتأكل مليا في الحستقل. وأحيانا تمر بها ساعات تستمتع فيها بوحدها قبل أن يقطع خادم عليها خلوتها ليدعوها إلى تناول طعام العشاء أو تناول الشاي مع زائر.

وعندما تأتي زوجات شركاء مارك في العمل لزيارتها كن يلمحن لها أنها تمتلك المقدرة على أن تؤسس قياد رجل قهار مثل مارك، وكانت تضحك قائلة:

"إنني لا أقوى على أن أسوس أمر مارك، وإلا كنت مثل الهرة الصغيرة التي تحاول أن تروض النمر".

وكانت بعض النسوة يسألنها:

"وهل تطرق حديثك معك إلى الكلام عن دوناتاة؟ كانت فتاة جميلة ولكنها لم تكن هرة صغيرة".

ولم تشهد دونا جوكاستا مثل هذه الزيارات التي كانت تطرح فيها النساء مثل هذه الأسئلة، ولكنها كانت تحب أن تسمع ما دار في هذه اللقاءات، وتدعو رافينا من حين إلى آخر إلى صالونها لتتناول معها كأسا من الشراب.

وفي إحدى المرات كانت تهز كأسها وهي تستمع للحديث

لم يكن شعورا بالغضب أو بالصدمة هو الذي انتابها ، وإنما شعور بالحزن لأن مارك أخبرها على الزواج منه ، بينما كان في وسعه أن يجد سعادته أو ربما يستطيع أن ينسى ماضيه مع فتاة من بنات أهله ولدت وترعرعت هنا وتحب الجزيرة كما يحبها هو وتقوم عقد أهل سردينيا ، وتسير أنوارهم .

تنهدت رافينا ، وتنهد جوادها بدورها ، وأدارت رأسه ، ليتخذ طريقه إلى الكازاتشيري سو ، عائداً إلى المنزل مروراً بفناء الكروم ، واعتذرت عن الهبوط إلى عرفة الطعام لتناول الغداء ، وعلقت اعتذارها بأنها تناولت بعض عناقيد العنب الفجة فأصابتها بألم خفيف في معدتها .

ترك مارك ربطة عنقه غير مفعودة ، واقترب من فراشها ، وانحنى عليها ، وتحسس جبينها بيده ، وقال لها :
"أنت تعانين من حمى خفيفة . سوف أستدعي لك الطبيب ."
أجفلت من ألمه يده وقالت :

"لا .. أرجوك لا تفعل يا مارك . سأشعر بتحسن حالا . كل ما في الأمر أنني لا أشعر بأدنى رغبة في تناول الطعام ."
قال مقترحاً عليها :

"ربما وجبة خفيفة تناسبك ."
هزت رأسها بالرفض ، لأنها لم تكن تشعر بأدنى شهية للطعام ، وكان كل ما ترغب فيه هو أن يدعها وحدها ، فحفظت عيناه ، وألقى المصباح بضوئه فبدت رافينا ضائقة وحزينة . سألتها :

"هل ترغبين في أن أمكث إلى جوارك ؟"
ندت من فيها بكلمة :
"لا .. لا .. سأكون بخير ."
"ما بك يا رافينا ؟"

تطلعت إليه فرات ربطة عنقه المحلولة ، وشعره الأشعث ، وبدا لها كأنه كان متعباً في ارتداء ملابس ، وشعرت بطمأنينة بخلاء تخترق ظهرها عندما أبدى رغبته في المكوث معها ، وودت لو أبدت له احتقارها لرغبته ، في الوقت الذي يكرس فيه كل أفكاره وأشواقه للفتاة الأخرى . قالت له :

"أريد أن أنفرد بنفسي .. أشعر بالألم خفيف ."
"الآنك تناولت الحصرم ؟"

اشماعت بوجهها عنه ، ولكنه جلس يتفكك إلى جوارها على الفراش ، وأمسك برأسها المتوج بشعرها الأحمر ، وانتشرت فضلاته فوق الوسائد البيضاء ، وتلألأت عيناها الخضراوان وسط امتزاج لون وجهها . سألتها :

"لم كل هذا العيوس ؟ هل قالت لانونا شيئاً أثارك ؟ لدي انطباع بأن وشائج الصداقة بدأت تربط بينكما ."
"هل من الضروري أن أقدم لك تفسيراً لكل حالة نفسية أمر بها ؟ ألا تدعني أنعم بالهدوء ؟"

"أنت في حالة نفسية غريبة ، وهذا ما يقلقني يا رافينا ."
"لا لبالي البتة يا مارك .. ولا تفسد طعام غداً بك بأمرى ."
شاهدت نظرة عتاب في عينيه ، وتساءلت هل يجرؤ على أن يعاتبها ؟ تولت إليه قائلة :

"أتركني وحدي . أنا .. أنا لا أختل أن يلمسني أحد الليلة ."
سألتها بهدوء :

"أيهما تكرهين أكثر .. ندوبي أم قبلائي ؟"
وشعرت مرة أخرى بطمأنينة من الألم تخترق جسمها ، وارتسمت صرخة مكتومة على فمها سرت في أوصالها ، فأطلق مارك سراحها ، وتركها ترقد ساكنة فوق الفراش ، ثم غادر غرفتها إلى غرفته ، وأغلق الباب بهدوء وراءه .

ولم يقم بزيارتها ثانية ، وبعد نصف ساعة جاءت صينية عليها شريحة من البطيخ ، وقطعة لحم ، وبطاطس ، وإلى جوار كل هذا رأت ورقة مطوية ، وأخست رافينا باهتزاز أصابعها وهي تقوم بقصها ، فقرأت :

"استدعيت في مهمة عمل ، وأرجو أن أعود في نهاية الأسبوع مع موعد الاحتفال بعيد مادري روزاريا . ربما نكون عندك في أحسن حال ."
مارك

حدقت رافينا في الخط الأسود الفاحم ، الواضح وضوح الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم السني كانت في أحضان مارك ، وبهدوء سحقته الورقة . كان يعلم تماماً أن

زواجهما يشوبه التوتر الحاد، ومع هذا أجبرها على الرضوخ لرغبتها، ورغم الشك الذي يراوده عن علاقتها برودري فإنه هو السبب في أن حياتهما لا تتطابق.

تناولت طعامها دون أدنى احساس بمذاقه، ثم جلست تجاه النافذة، وراحت تنطلع الى القمر وهو يعتلي قمة أشجار السرو، وكانت أشعته الغضبية، والنجوم المتألثة، تغسل صفحة السماء كما تلعب هي وحدتها ١٤

★ ★ ★ ★

استيقظت رافينا في صباح يوم العيد يحدوها الاحساس بالاضطراب والأمل الذي يخالج كل شاة. إنها سوف تستمتع بيوم كامل تهرب فيه من الكآبة. يوم كله مرح وانطلاق.

عاد مارك متأخرا في الليلة التي تسبق يوم العيد، واستطاعت أن تسمع حركاته في الغرفة المتاخمة لغرفتها، وهو يفتح الدولاب ويسقط حذاءه، ربما نتيجة لاضطرابه بقدوم اليوم التالي.

أخذت رافينا حماما، وساعدتها وصيغتها في ارتداء ثوب الجدة الكبيرة ديجيرا وكانت الوصفة فرحة بالعيد، وعلمت رافينا منها أن القرية بأسرها تنطلق إلى التلال في هذا اليوم. كل أسرة تركب عربة مزينة بأروع زينة، ومزودة بالشرائط الملونة، وحتى الأتان يكون مكسوا بالورود.

ابتسمت رافينا وقالت:

"أظن أنه احتفال ديني."

"أجل يا بادرونسيتا. تتقدم صورة مادري روزاريا الموكب الذي يحمل المشاعل، بينما يقوم بتوزيع على كل إنسان. ثم يبدأ المهرجون في أداء ألعابهم النارية، على أنغام الموسيقى."

"أرى مدي لهفتك يا روزيتا على الذهاب الى هناك. هل سيذهب صديقك معك؟"

توردت وحشا روزيتا بحمرة الخجل، وخفضت جفניה، وقالت:

"تونيو سيصحبني معه على ظهر جواده، إنها الطريقة التي يذهب بها المحبون الى الاحتفال."

قالت رافينا:

"يا له من تقليد جميل!"

ثم فتحت صندوق مجوهراتها، وتناولت ووضعته على صدرها فوق بلوزتها البيضاء، ولحظت وجود قرط كانت نادرا ما ترتديه، أخذته وأمرت روزيتا أن تقف ساكنة، حتى تثبت في أذنيها. فزاد تورد خدي الفتاة وهي تقول:

"بادرونسيتا... هذا القرط لي أنا؟"

"أجل كم هو جميل في أذنك. والآن انطلقني، واستعدي للذهاب الى الاحتفال مع صديقك تونيو."

أمسكت الفتاة بيد رافينا وراحت تقبلها، وقالت لها:

"أنت طيبة القلب، إنني سعيدة الحظ أن أقوم على خدمتك يا بادرونسيتا."

"انطلقني الآن، ولا تجعلني صديقك يطيل انتظاره."
وهزت الفتاة رأسها، لتتغير باهتزاز القرط المتألي في أذنيها، وبابتسامة سعيدة أسرع تغادر الغرفة، وعندما تبعت رافينا الصليب حول عنقها، تساءلت لماذا لا يحدوها الاحساس بأن تكون خلية البال مثل وصيغتها التي انطلقت الى الاحتفال بصحبة شاب يحبها.

كان الهدوء يسود المغرفة المجاورة، وحدثت أن مارك هبط الى الدور الأرضي لتناول طعام الإفطار، وشعرت بظمنة ألم، لأنه لم يأت لرؤيتها وهي ترتدي ثوبها الجميل الذي قدمه لها.

راحت تتأمل نفسها في المرأة الطويلة المثبتة في الثرانة، وحاز مظهرها على إعجابها. كان الثوب أخضر اللون بحافته أهداب قمحية اللون، ثلاثم بشرتها، وشعرها عقصده في تسريحة بدیعة، وأشراب عنقها من بين ثنايا فندحة البلوزة، وتألقت عيناها بخضرة الجواهر، وبالعزم من تجاهل مارك لها، والاضطراب الذي اجتاحتها إلا أن

عزمها قر على الاستمتاع بكل لحظة من لحظات الاحتفال .
وتساءلت: هل تتوقع وجود سيليوس هناك؟ افتقدت
مداعباته وتمنت أن تراه .

وبشعور أشبه بشعور فتاة تعيش في أوائل القرن، جمعت
أطراف ثوبها في يدها، واتخذت سبيلها، وراحت تهبط
درجات سلم برج الفارس، ولم تقابل أحدا في طريقها،
فألحظ نالوا إجازة للمشاركة في الاحتفال، مما أشعرها أن
الكارا أصبحت مهجورة .

عبرت رافينا البهو، ودلغت إلى غرفة المعيشة، حيث
وجدت طعام إفطارها معدا على المائدة: القهوة . . والخبز . .
والعسل، وتساءلت وهي تحتسي القهوة إلى أي مكان
توجه مارك الآن؟ ربما يكون بصحبة لانونا التي ذكرت
في الليلة السابقة بأنها كانت تحرص على مشاهدة
الاحتفالات، ولكن عظامها لم تعد تساعد على مقادرة
البيت .

انتاب رافينا القلق، فلم تستطع المكوث، فانتقلت إلى
الفناء حيث وقفت تستمتع بأشعة الشمس، وراحت تتناول
قطعة من الخبز المقدد عليه طبقة من العسل، وبينما كانت
تمسح شفثيها، تنأهى لسماعها صوت حوافر تقعقع فوق
الأرض، ولاح الجواد أدونيس في الفناء، وعلى ظهره مارك .
هز الجواد عنقه، وبرزت عضلاته تحت سرجه المصنوع
الأسود، وكان مارك يرتدي بنطلونا قصيرا أسود اللون،
ومدارا مطرزا فوق قميص مكشكش، وأكدت حافة قميصه تألق
عينيه . كان يبدو في كل شبر منه واحدا من أهالي سردينيا أو
فارسا متكبرا ينطلق للصيد بصحبة الصقور وكلاب الصيد .

قال مارك لرافينا:

"تعالى . . . اجعدي واجلسي أمامي فوق الجواد ."

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تشدها عيناه، فقد
سحرتها من قبل قوة ارادته، وعندما مال نحوها، تشبثت
ركبتاه بالسرج، وبحركة قوية رفعها وأجلسها أمامه، وأقشعر
بدنها قشعريرة خفيفة، مقترنة بسرور خفي، وأمسك بها
بشدة بينما أخذ الجواد يسارع الفناء، لينطلق إلى عرض

الطريق .

وبعد لحظات أصبح ضمن المؤكب المرح الذي كان يسلك
طريقه متجها إلى الجبال حيث كنيسة مادري روزاريا .
وكانت المغال محملة بأكوام من الفراش والأطفال الهاربين
والعربات المظلية باللونين البرتقالي والأزرق . نظائرت أشربة
الزينة في الهواء وحياذ عربية امتطأها العشاق الذين راخوا
يطلقون أصواتهم بالفناء على أنغام آلات الأكورديون .

كان المنظر كالحلم الجميل، و رافينا تبدو كالطفل
الماخوذ الذي لا يجرؤ على الحديث أو الحركة خشية أن يتضرر
سحر الحلم، وشعرت بمارك يختلس النظر إليها، ولم تقو على
التفكير في الأيام الثلاثة التي أمضاها بعيدا عنها، فكانت
ماخوذة بسحر اللحظة التي تعيش فيها . وتطلعت إليه وغطت
رأسها بوشاح حريري تتقي به حرارة الشمس، وقالت له:

"المنظر بديع، أليس كذلك . انظر إلى هؤلاء الصبية الأربعة
الذين يمتطون المغال، وهذه المرأة التي تحمل الطعام فوق
رأسها . على فكرة يا مارك . . نسينا إحضار الطعام لنا ."

ضحك مارك وبدأ خلي البال مرحا، ولم تستطع أن تمنع
دهشتها من رؤية هذا التألق الذي لاح في عينيه . وقال:

"قدمت روحين من الغنم للحفل الذي سيقام هذا المساء، أما
عن طعام الفداء، فإننا سنجد العديد من الناس الذين
يسارعون إلى تقديم الفطائر والخبز، والفاكهة، ولا أدري
كيف سنأكل كل ما يقدمونه لنا ."

ازدادت عيناه عمقا وسوادا عندما راح يتفكر
في رافينا ثم أردف يقول:

"لم أشهد الاحتفال منذ مدة . . وأخشى أن يغمرنا الناس
بكرمهم ."

وبينما كان مارك يتحدث إلى رافينا، أظلت امرأة من
عربتها وقالت:

"إنه حدث جميل أن يشاركنا الياذرون وزوجته هذا العام .
مادري روزاريا ."

"وأنت أيضا يا سنيورا وزوجك الطيب، وأولادك الصغار ."
وأحست رافينا بذراع مارك وعندها تطلعت إليه

رأت في وجهه هذا الجمال الأسفر الذي أشارت إليه السيدة فيرتبوللا يوم اشترت منها أشرطة الزينة، إذ قالت:

"إنه أشبه بأخير... بل رجل تعشقه الفتيات!"

واليوم يبدو مارك للمرة الثانية وهو يرتدي الثوب السردى، وعيناه فرحتان بمتظر التوكب والأطفال والجمال المتوحش للجمال، كما رأت فيه رجلا لا يتحرق إلى الانتقام لنفسه، فرفعت يده المكسوة بالندوب في ايماءة تنم عن عاطفة، وكأنها تريد أن تخفف من ذكرى الألم الذي اعتصر عظامه، وبشرة يده التي احترقت.

ولم يتأدلا الحديث ثانية حتى توقف الجميع لتناول طعام الغذاء، في مكان يقع عند منتصف الطريق المؤدي إلى الجبل، وما كاد مارك يرفعها من فوق الجواد ويهبط بها إلى الأرض حتى أحاط بها العديد من أفراد العائلات الذين راحوا يقدمون لهما أنواعا من الطعام.

إنها تزهة تنسم بالمرح، جلسا على العشب وراحا يلتهمان الخبز مع شرائح اللحم والزيتون الأسود، ويحتسيان كؤوس الشراب، وكانت الأغاني تتردد على أنغام الموسيقى، وعندما حان الوقت للعودة سارا إلى حيث كان يقف أدونيس بجوار جدول، وشعرت بيدي مارك تتكئفهما قسوة خفيفة، فندت منها صرخة قائلة:

"مارك"

قال لها:

"أيتها الساحرة الصغيرة، عيناك في خضرة أوراق الشجر يتلألا فيهما سحر يحطم قبضتي، أو يحيلني إلى تمثال أصم."

تلاحقت أنفاسها عندما جذبها بعيدا عن الجواد، واختفى بها وراء صخرة كبيرة تتأخم الجدول، وهناك أجفلت، وغطت عينيها بذراعيها، ومال مارك نحوها، وارتكز بمرققه على الصخرة، وراح يتطلع إليها، وتهدلت خصلات شعره الأسود فوق عينيه حيث تألق فيهما حيوية الشباب المتوحش، وقام بحل جدائل شعرها، وأخذ يلف الخصلات حول عنقها الأبيض وسألها عن رودري من جديد فقالت مدافعة:

"هذا موضوع ليس له مكان في يومنا هذا، أرجوك، أنسى رودري، وأنا متوقف أنسى آخر تلك الفتاة."

وتوقفت عن مواصلة الحديث عندها ضاقت عيناه، وازدادت حدة، وسألها:

"أي فتاة تقصدين؟"

قالت:

"أنت تعرف ما أعنيه، الجميع شرعوا في الاستعداد للرحيل، وخير لنا أن نرحل معهم."

أقلت رافينا نظرة متعجلة على وجهه وتجهمه، وحينما خطا خطوة واحدة أخذت في الدوران حول الصخرة هارسة منه، وسارت إلى حيث كان يقف أدونيس، وكان الناس يستعدون لقطع نصف المسافة المتبقية التي تؤدي إلى الكيسة فوق الجبل، وكانوا يرددون أن الريح وحدها هي التي تدق أجراسها، وبلا تفكير أسرع نحو الجواد، ووضعت قدمها على الركاب، وسمعت صرخة عاجلة:

"رافينا"

ظننت أنها صرخة غاضبة، فأمسكت بعرق أدونيس ليساعدها على امتطائه واستدار الناس يتطلعون إليها، وبدا الاهتمام على وجوههم عندما تراجع الجواد إلى الوراء، ليلقي بها على ظهرها وقد تعلقت قدمها بالركاب وشعرها اللامع يتجرجر على الأرض.

تعالى الصرخات تنبيه إلى الخطر المباغت، فأسرع مارك إلى الجواد الذي ارتفعت ساقيه الأماميتان عاليا، فأمسك باللجام ليكبج جماحه ويهديء من روعه، وفي الوقت نفسه سارع شاب لانقاذ رافينا التي كانت تعض شفتيها من شدة الألم.

أطلق مارك سراح قدم رافينا من قبضة الركاب، ولم تستطع أن تكتم صرختها من الألم الذي نجم عن النواء كاحلها، فناولها البعض قليلا من الشراب، وقام البعض الآخر بغمس قطعة قماش في ماء بارد ثم عصبوا بها الكاحل.

أبعد مارك خصلات شعرها عن وجهها الشاحب ثم قال:

"سأعود بك إلى البيت."

أمسكت بذراعها وقالت:

"لا، انني أريد أن أحضر العيد."

قال غاضبا:

بينما كانت الوجوه تطل من فوق كتفه، تجمعت امرأة تسأل
البادرونيشينا أن تتركب معها ومع أطفالها عربية العائلة.
حاولت رافينا أن ترسم ابتسامة فوق شفثيها المرتجفتين،
ثم قالت:

"أرجوك يا مارك، تخلص من الاضطراب الذي يكسو وجهك،
أنت تخيفني أكثر مما فعله أدونيس بي".
قال:

"كان من الممكن أن يسحقك الجواد بحوافره، ماذا كنت
تحاولين عمله؟ هل كنت عازمة على الهروب ثانية؟"
عضت شفثيها وقالت:

"مارك... كل واحد منا يعترض طريق الآخر".

"هل تعترضين طريقي؟"

تحدثت بعينيها الخضراوين قائلة:

"إذا كنت ترغب في أن أقول لك نعم، إذن هي نعم".

قال مارك:

"يوما ما سوف أصغفك يا رافينا".

وكان أحدهم يعرف الانكليزية، فأطلق ضحكة خافتة،
كسرت هذه التوتر الذي ساد الموقف، فرفعها مارك فوق
ذراعيه، وحملها الى عربية يقودها أتان هزيل، تنطلق من
فوقها رؤوس أطفال صغار دفعتهم أحهم جانبا قائلة لهم:

"افسحوا المكان للسنيور".

وقدمت بطانية لتجلس عليها رافينا ثم أردفت تقول:

"ضعي قدمك فوق هذه الوبادة... يا سنيور".

ابتسمت رافينا في وجه الأطفال الأربعة وقالت:

"شكرا، أنتم أكثر طيبة مما كنت أتصور".

وراحت رافينا تتطلع الى وجه مارك، وبعد بضع
كلمات تبادلها معها، واستدار وسار الى حيث يقف أدونيس
الذي نكس رأسه نحو الأرض، ورأته يعتلي السرج، وعندما

جالت بصورها في العربية رأت طفلة صغيرة ترفع يدها الى
وجتها، وكان عينيها تسألان رافينا سؤالا شاجسا برقة:

"السنيور... زوجي، خرج وجهه في حريق؟"

قالت الطفلة:

"مسكين وجهه".

وأشاحت رافينا بوجهها عندما أحسبت بالدموع تكاد
تظهر من عينيها، وطفقت تقول لنفسها:

"أوه، مارك، أريد أن أفهم السبب الذي يشدنا الواحد للآخر،
والدافع الذي يدفع الواحد الى الابتعاد عن الآخر".

اذ الأتان يسعى ويرتقي الممرات الملتوية المؤدية الى
مادري روزاريا، وترددت في الأرجاء دقات الأجراس

التي نصبت في برج

قالت أم الأطفال الأربعة:

"أوشكنا على الاقتراب".

ولاحت لهم جدران الكنيسة، والبرج المخروطي الشكل،
والأبواب المفتوحة ورأت رافينا جوادا أسود اللون فوق
القل، وفارسه جالسا على ظهره في هدوء تام، يقف وحيدا،
تكتنفه العزلة، وقد نأى بعيدا عن ضجيج الموكب ودقات
الترجيب التي تعلنها الأجراس.

تساءلت رافينا وهي تراقبه: فيم يفكر هذا الفارس وهو
جالس هناك؟ هل يفكر في آخر مرة شاهد فيها الاحتفال، أم
المرّة الأولى التي حضر فيها الاحتفال بصحية دوناتاء، لا بد
أنهما جلسا سويا فوق السرج وهما يرتقيان الطريق المؤدي
الى الكنيسة، ولا بد أنه كان يهمس لها على أنغام دقات
الأجراس: أحبك يا دوناتاء... سأحبك دائما.

وفجأة أدار رأس جواده، واقترب من العربية التي توقفت
عند جانب الطريق وقال:

بك في كنيسة مادري روزاريا، سندخل فيما بعد

لنتعلم الشموع، أخبريني كيف حال كاخلك؟

انزلق مارك من فوق الجواد، وبادر الى مساعدتها على
مغادرة العربية، وسمعا سويا صوتا هادئا يقول:

"هالو".

التفت نحو صاحبة الصوت، فوجد الطفلة الصغيرة تتعلق
بالتنورة الخيرية التي ترتديها رافينا، فابتسم لها وقال:
"يجب أن أخذ السيدة معي"
قامت الابتسامة على شفתי الطفلة وقالت:
"أود"

مال جسمه على الطفلة، ولمس برقة خدها وقال:
"أنت ترين يا صغيرتي، ليس معي أحد يشاركني الاحتفال
بالعيد، ساكون وحيدا عندما يطلقون ألعابهم النارية"
"ليس عندك أطفال يا سنيور؟"

"لا .. ليس عندي أطفال، ولكن السنيورة زوجتي تريد أن
تشاركني مشاهدة الألعاب النارية، هل تسمحين لي بذلك؟"
ابتسمت الطفلة الصغيرة، وهزت رأسها بالإيجاب، وتركت
يدها التي كانت ممسكة بالتنورة الخضراء، وحمل مارك
رافينا، وحينما تطلعت إليه، وجدت الابتسامة غاضت من
وجهه وتحولت الى كآبة، لا شك أن الامر لا يمكن تجنبه، كان
وجود طفلة ساحرة، لا بد أن تذكره بانه الذي فقده، وعندما
لوح لها بيده عادت النظرة المظلمة الى عينيه، وقال:

"تعالى ... يجب أن نجد مكانا نخضي فيه الليلة، ونقيم فيه
الغراس حتى يدرك الآخرون أننا قد حجزنا مكاننا، هل
تعرفين أنه من الضروري أن نخضي هذه الليلة في أحضان
الثلج؟"

هزت رافينا رأسها بالإيجاب، وراحت المصابيح بدأت
ترسل أضواءها وذقات الأجراس راحت تدوي، وتتردد
أصداؤها فوق الجبال، وتلمس كل قلب بلحمة ساحرة، وبعد
قليل سوف تشتعل آلاف الشموع فتبديد الظلام الذي يسود مدخل
الكنيسة، ولا بد من مرور موكب حاملي المشاعل الذي تتقدمه
صورة ماردي روزاريا، ويحملها أحدهم عاليا حتى يتاح
للجميع رؤيتها، وسوف تخرق الألعاب النارية كبد السماء،
وتقام المواكب، وتعرف الموسيقى.

كانت التلال شاهقة الارتفاع حتى لامست قممها النجوم
التي كانت أضواؤها تتألق في عيني رافينا.

٩- المكتوب ... هو المكتوب

تطايرت الألعاب النارية، وانفجرت، ثم أمطرت وابلًا من
الأضواء الملونة على الوجوه المشرقة دهشة، وكان الشواء
محلقا في أسياخ تتقلب فوق فحم متأجج بالنار.
وكان الأطفال يمرحون وهم ممسكون بالبالونات، بينما أخذ
بائع متجول يعرض على الجماهير الحلوى الصغيرة، وقام آخر
ببيع الدمى المكسوة بالثياب في حين وقف بحراب أسود على
كتف عجري وراح يلتقط أوراق الكوتشينة من رف صغير،
وحينما قرأ الفجري المستقبل لاثنتين من الفتيات انفجرتا
بالضحك.

وانهمكت رافينا في التطلع الى كل شيء حتى كادت
تفسي ألم كاحلها، كانت ترتدي ثوبا تقليديا جعلها تشعر
بأنها مثل هؤلاء الفتيات الضاحكات، وكانت ذراع الرجل
السردى تحيط بوسطها، فانتابها الاضطراب ازاء احاسيسها
بالسعادة التي تشبعت بها كما يتشبعت هؤلاء الأطفال
ببالوناتهم الملونة، التي قد تتعرض لشرارة، فتنفجر.
سألها مارك:

"هل تأخذين حلية صغيرة أو دمية أو ترغبين في معرفة
المستقبل، يمكنك أن تنالي الثلاثة اذا شئت."
قالت مستسحة:

"الحلى الصغيرة لا تناسني، وعرفت مستقبلي، ولكنني أظن
أنني أريد دمية."
أوما مارك للبائع للحجى، لأن رافينا سوف تضطر الى

أن تطلع وسط الجماهير حتى تصل اليه، وعندما وصل اليهما
البائع اختارت دمية ترتدي ثوبا قرمزي اللون، الصدر مطرز،
والتنورة مكشكشة، وشريط زينة رفيع فوق التنية.
قال مارك:

«أعطني الدمية ذات الرداء الوردي أيضا.»

والتقطها، وناولها لرافينا. ثم أردف يقول:

«هذه الدمية للطفلة الصغيرة ذات العينين الكبيرتين، ربما
نراها ثانية بمحض الصدفة.»

شعرت رافينا بالسعادة لأن تجد مارك يتذكر
صديقتها الصغيرة التي كانت تجلس معها فوق العربة التي
يجرها الأتان الهزيل. وأبدت إعجابها بالدمى، بينما كان
مارك يدفع ثمنها.

سألها مارك:

«قلت أنك عرفت مستقبلك. من أخبرك بحظك؟»

قالت:

«إنها امرأة تعيش في القرية تدعى فيرتيويلا.»

«تقولين فيرتيويلا؟» آه تلك المرأة التي هجرها
ابنها ماركو راعي الغنم ابن الثمانية عشر ربيعا، الذي
ضجر من حياته وانضم إلى عصابة قطاع الطرق بغية رعد
العيش.»

«ألا تستطيع أن تفعل شيئا لانتقاذه؟ إن أمه امرأة طيبة، تعمل
بجد وقلقة على ابنها.»

«يجب أن يترك ماركو العصابة قبل أن يجد المرء يده
لمساعدته، ويتكفل بأمره. إن المشكلة يا رافينا تكمن في
أننا نجد الناس غير مستعدين دائما للغطاء، عندما نطلب
منهم بذل جهودهم. حاولت في اليوم الآخر أن أشرح السبب
... ولكن ... انظري ... هاهي ذي الطفلة الصغيرة ذات
الشريط المعقود في شعرها.»

كانت الطفلة تجلس مع عدد كبير من الأطفال أمام مسرح
العرائس، تحديق باهتمام فيما تؤديه الدمى.

تمتم مارك قائلا:

«الأطفال يحبون مشاهدة مسرح العرائس.»

وأحست رافينا بالحزن يشوبه صوته، وحدثت أنه كان
يقف هنا مع ابنه منذ سنتين، وكان يضحك مثل هؤلاء الأطفال
الضاحكين، وعيناه تتألقان بمثل الصدق والسعادة اللتين
تنبعثان من عيون هؤلاء الأطفال.

قال مارك:

«اعطها الدمية.»

وأشاح بوجهه الذي أضاعته شعلة من عود الثقاب الذي
أشعل سيكارتته، وأرعى الدخان ستارة فوق التغيير الذي بدا
في عينيه، وهما يبارحان سويا بعيدا عن صوت ضحكات
الصغار.

أقبل الليل ... وبعد الانتهاء من مشاهدة الألعاب النارية،
جلس الناس جماعات، والتفت كل جماعة حول النار التي
أضرمت في الهواء الطلق، وراحوا يتناولون شرائح اللحم
المشوي، وقطع الخبز، وأديرت أكواب الشراب، بينما راح
المشدون ينشدون أغاني سردينيا القديمة على آلات
الماندولين.

كان مذاق الطعام طيبا، وكان كثف الرجل مكانا مريحا كي
تريح رأسها بينما تلاعبت السنة الذهب فتلقي ظلالها على
الوجوه التي بدت عليها القوة والجمال والوقار.

عكس شعر رافينا نالق النار، وتلاأت عينها
بفكرتها وهي تستجمع إلى أغنية سردينيا تروي قصة حب
راعي غنم، وسرها أن تدرك معنى الكلمات التي تتردد
بالهمة المحلية، وكانت تقول: «الحياة تجعلني أصرخ ...
وأضحك ... واتفهد. أحبها كلها ... أما أنت فأحبك أكثر من
أي شيء آخر.»

ودفعها شيء مبهم إلى أن تتطلع إلى مارك. بينما كانت
الموسيقى والكلمات تخف تدريجيا، وظنت أنها ترى ومضة
حنان في عينيه، وسرعان ما أدركت السبب، إذ دخل فجأة
قوام بحيل إلى دائرة ضوء القمر، لها شعر أسود، حافرة
القدمين، تمسك بيدها دغا صغيرا. إنها فتاة المطعم التي
راحت تبسّم وهي تدور بين الناس، ثم خطت خطوات سريعة
حتى تطايرت تنورتها الحمراء في الهواء، وتوقفت

امام مارك ووجهه وشوهدت ابتسامته على شففتيها.
يشوبها اليأس الممض، ثم قالت:
"بادرون؟"

كانت كلماتها تحمل نبرة التوسل، وتشبثت نظراته
بمعنيها، ثم بدأت من جديد ترقص رقصة الدف.
تومرت رافينا وهي جالسة الى جوار مارك خلال
الرقصة، وودت أن تولي الفرار، ولكن كيف لها التنبيل،
وكاخذها يعوقها عن السير، وسوف تبدو كبرياؤها مهينة اذا
هي قربت من فتاة ترقص لزوجها وحده.

رأت رافينا أن الرقصة لن تنتهي، وأصبح فوق احتمالها
أن تجلس هكذا الى جوار مارك، وشعرها يحك ذقنه، ودفء
كتفه ينفذ خلال بلوزتها الخريزية. وكانت رعشة الدف،
وظلال الفتاة تطوف بكل مكان في دائرة ضوء النار، وأخيرا
غربت الفتاة، ولكن ظلها بقي في المكان، فأشاع سحابة من
الكتابة على رافينا، ولم تستطع الفكك من أسرها.

بدأ الناس يتقاعبون، وأخذوا يسعون للنوم اما في خيامهم
أو في عرباتهم، وتبادلوا القبلات وهم يرددون التهنية بالعيد
السعيد.

شعرت رافينا بيدي مارك فوق كتفها، ونظرت اليه
بوحشية عندما جذبها الى صدره، ولكنها سحبت نفسها دون
أن تبادل قبلة.

قال بنبرة باردة:
"انها عادة أن يتبادل الناس القبلات في العيد. ألم يدخل
العمر جان السعادة الى قلبك؟"
قالت:

"أنا... أنا أمضيت وقتا طويلا."
ابتسم ساخرا وقال:

"وقت طيب؟ متى تتعلمين أن تكوني واحدة منا - وتشعرين
بالعاطفة نحو شيء ما؟ تبدو عليك القسوة حتى يبلغ بك الأمر
الى أن تنتزعي الأقراط من أذنك. هل تدعين فتاة أخرى
تسرق منك حبيبك؟"
قالت ببرود:

"أنا لا أضع أقراطا في أذني، ومرحبا بالفتاة التي تستطيع أن
تسرق."

وحاولت أن تغلت منه، ولكن ألم كاخذها أقصد عليها
المحاولة، وكادت أن تنهاوي، ولم تجد أمامها الا أن تستعين
بمساعدة مارك في التوجه الى خيمتهما. كانت ليلة
مخملية. ينالق فيها ضوء النجوم. وكانت رافينا اعتادت
في رحلاتها المدرسية أن تنام في المخيمات التي تقام في
الهواء الطلق، أما الليلة فإن الأمر مختلف تماما. انها تسمع
صوت الرياح تشدو أناشيدتها عبر الأشجار التي تكسو الجبال،
وعندما تخلد الى النوم، فانها سوف تشارك مارك الدفقة
ببطانية من جلد الغنم لتواجه برودة هواء الجبل.

قال مارك:

"الرباط يجب أن يتخفف قليلا حول كاحلك. اجلسي على هذه
الشجرة المتهاوية، وسأفعل ذلك بنفسي."

وكان مستحيلا على رافينا مناقشة مارك، وامتلكت
لظلمه، وشعرت بقوة لمسة أصابعه وهو يحل الرباط الحريري
ويعيد تثبيته خفيفا حول كاحلها، حتى لا تشعر بالخدر أثناء
نومها.

"هل الرباط مريح؟"

"أجل، شكرا لك."

وقف ثم استدار بظهره الى شجرة وقال:

"كنت شيئا قبل اصابة كاحلك، ولكنني نسيته حتى الآن. لقد
أشرت الى فتاة..."
قالت:

"مارك... ليس الوقت أو المكان مناسبين لمناقشة
الموضوع، أما متعبة جدا، يوجد هناك أناس بالقرب منا."

"بالطبع... ولكن أحبي فقط على سؤالي يا رافينا. هل
تظنين انني على علاقة بامرأة أخرى؟"

وقع السؤال عليها وقعا مفاجئا قاسيا، فقالت:

"اذا كنت تبغي امرأة أخرى فمن الخير أن تدعني أرحل."

ووقفت على قدميها لمواجهته، وأردفت تقول:

"لا تحتفظ بي معك يا مارك، أنت تعلم يا انتفاء"

السعادة بينما، وحياتنا تسير هكذا *

واستدارت لتبتعد عنه، وترقد فوق السجادة، وودت لو تدخل للنوم قبل أن يلحق بها، ولكنها سمعت وطء أقدامه تقترب منها، وتوتر جسمها عندما نام إلى جوارها، وانتظرت أن يلف ذراعه حولها كعادته، إلا أنه رقد بعيدا عنها *

استيقظا مبكرين في الصباح، وطويا فراشهما وغادرا المكان مبسمين شطر البيت، وبدت لهما الجبال خالية من الناس، ولم يبق أحد سواهما، وخيل لهما أن هذا الحدث لن يتكرر ثانية، وحدثت نفسها قائلة: "أنني لن أشعر بأنني أنبضي بالحياة، أو أنني امرأة بصحبة رجل، كما أشعر الآن، مارك، أوه، مارك لو أستطيع أن أعرف حقيقة قلبك .. كما أعرف شكل وجهك *

وصلا البيت قبل الظهر وكانت رافينا سعيدة أن تدخل غرفتها، وتفصل جسمها، وترتدي ثيابا خفيفة فضفاضة، وتناولت الطعام وحدها، وأضحت فترة بعد الظهر وحيدة. وشعرت أن مارك نأى بعيدا عنها، لأن لديه شيئا على جانب من الأهمية يخص مستقبلها يريد أن يفضي به اليها. واستبدلت ثوبا حريرا بتوبها وهبطت درجات السلم لتتظر مارك في غرفة الاستقبال حيث كانت تلتصق الهدوء لقلبها .. وعقلها *

أخيرا جاء مارك وبدا لها رجلا مختلفا وهو في بدلة الرمادية، كان صارما، طويلا، متحفظا، وليس في صورة البردي الذي حملها فوق جواده لمشاهدة الاحتفال بالعيد. واستقرت عيناها على قدميها اللتين استراحتا على مقعد مستدير صغير. وقال:

"كيف حالك؟"

"يؤلمني، ولتكنني سأعيش، ألا تجلس يا مارك. أنت تشيرني بقوامك الفارع وهو يظل علي *

خاص مارك في أحد المقاعد الوثيرة، وراح يبحث عن صندوق لفائقه، وسألها:

"هل يمكنني التدخين؟"

قالت:

"طبعاً يمكنك التدخين، أنت تعرف أنني أحب رائحة الدخان *

قال:

"إنني لا أعرف ماذا تحبين يا رافينا *

ولفت الدخان الأزرق في الهواء، فأتخذ شكل علامة استقبال، أنه رمز صامت لسؤال يحول في أعماق قلبها *

قال:

"رافينا *

ردد اسمها، وشعرت أن ما سيقوله مارك سوف يحدد مصير مستقبلها. وحتى هذه اللحظة، كان قلبه لا يلين أمام أي شيء. كان صارما عندما قال لها ستتزوجيني، وستعلمين كيف تعيشين مع وجهي هذا *

استقرت عيناها على وجهه، وكان غريبا أن تشعر بأن ندوية لم تعد تثيرها كثيرا. إنه لم يتعود على أن يطأطأ رأسه ليخفيها عن الناس، وأخست أنها توارت عن بصرها، وأصبح ما يعينها منه قوته وسحر عينيه *

سألته:

"ما الأمر يا مارك؟"

وتقلصت يداها .. وفكرت في الكلمات التي تقوهمت بها وهما فوق الجبل حينما قالت له بأن السعادة الحقيقية لن تعرف مكانها بينهما *

قال بصوت حاسم الخارج قاطع الخبرات:

"سأغيب عن البيت أسبوعا، لن أخبرك بالسبب، أو المكان الذي سأوجه إليه، ولكن عندما أعود ستكون لدينا أمور يجب مناقشتها، وحفائقي يجب أن نواجهها *

برزت عيناها، وسألته:

"ألا نستطيع مناقشتها الآن. هل يجب علي الانتظار أسبوعا آخر؟"

لهض مارك وأهفا على قدميه وقال:

"أجل .. لقد طلبت منك الشيء الكثير يا رافينا، والآن أطلب منك الصبر *

"تطلب مني الصبر يا مارك؟ أن أعطي أسبوعا كله

انتظار وتساؤل، بينما تذهب أنت أينما تشاء، هل هي رحلة عمل أيضا؟
قال مترددا:
"ليس تماما."
"هل لها علاقة بتلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي رقصت لك ليلة أمس؟"
توهجت عيناه لتلتقيا بعينيها، وقال:
"رقصت لي؟ هل تظنين؟"
شعرت رافينا بالبرود يكتنفها، واستجمعت شجاعته وقالت له:
"انني أعرف أنك تورطت في علاقتك مع هذه الفتاة. ومن أجلها تتغيب كثيرا عن البيت. اسمعني يا مارك. ليس من المحتمل أن تنتظر أسبوعا آخر حتى نناقش أمر مستقبلنا. يمكننا مناقشته الآن. اذا أصررت على الذهاب فلا تتوقع أن تجدني هنا عندما تعود."
بدا التحهم على وجهه، وتقدم نحوها، وقال:
"بل يجب أن تكوني هنا. انني أصر على أن تعديني بالبقاء حتى أعود."
وارتجف صوتها وسألته:
"لماذا تصر على وعدي؟ دوننا جوكاستا. تستطيع أن تحتجرتني في غرفتي."
برزت الندوب جلية في وجهه وهو يقول:
"لا تكوني طفلة، كل ما أطلبه هو ثقتك، لمدة أسبوع واحد فقط. هل يمكنك أن تمنحيني أياها، على الأقل؟"
قالت مترددة:
"على الأقل؟ ظننت أنني أعطيتك كل شيء طلبته مني..."
انني أسفة... كل شيء تراه يعد قليلا في نظرك في الوقت الذي يعني عندي المزيد من الألم. انني أعاني من الشقاء وأنا بعيدة عن وطني وتأتي بي الى هنا الى بيت الاشباح والذكريات. هل تظن انني أمضيت يوما سعيدا هنا؟ هل تظن انني اكرث كثيرا في أن تفضي الي الآن أو بعد أسبوع بأن لعبة التائر انتهت؟

نهضت واقفة وراحت تحيل طرفها فيه، قلم تأبه لقوته اذا ما قورنت بنحولة قوامها، فقال لها:
"أجل ان لعبة التائر انتهت. هناك بعض الكلمات لم تقل بعد، ولكن بحق الشيطان لن أتفوه بها الآن. لا أظن انني لا أستطيع أن أقولها."
وتنحى جانبا فبدت صورته الجانبية مطبوعة على الضوء الأخضر. باردة متكبرة، ثم قال:
"كم أود أن أجعلك تفهمين بأن هذه الرحلة هامة وغير هامة في الوقت نفسه وعلى أن أذهب لأنني وعدت بالذهاب. إلا يمكنك أن تعديني؟"
قالت ببرود:
"لا، لا، يا مارك."
هز كتفيه العريضين باستخفاف وقال:
"المكتوب هو المكتوب!"
حملت رافينا فيه وهو يغادر غرفة الجلوس وقد تجمدت كلماته "المكتوب... هو المكتوب" على شفثيها، وأحست بأن الرباط الضاغط الملفوف حول كاحلها قيودا تغل حركتها. ان المكتوب هو المكتوب ولن نستطيع أن نفعل شيئا لتغيير مجرى الأحداث. ووقفت مكبلة بالكبرياء وتركته يذهب الى الفتاة الأخرى.
لأنونا لا بد أن تكون راودها الشك في حدوث صدع في علاقة حفيدها بزوجه، ولكنها لم تشر الى رحيله المفاجيء من المنزل عندما التقت بها في صالونها هذا المساء، وانما تحدثت عن تلك الايام التي أمضتها في الجزيرة، وتفحصت رافينا ببصرها مليا، وهي جالسة على السجادة بجوار المدفأة، وقالت لها:
"يمكنك أن تعتبري نفسك امرأة. يوم تفهمين السردى. أنت تجلسين تماما كما جلست في تلك الليلة الأولى التي أتيت فيها، كنت طفلة ورحلت أتطلع الى شعرك في ضوء النار، وقلت لنفسني: أه... هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر، والعينين الخضراوين ستسبب في إثارة متاعب كثيرة."
قالت رافينا:

كنت تريدان فتاة مطيعة سهلة الانقياد

قالت الجدة:

أردت السعادة فقط لماركوس بعد طول الحزن، وظننت أن الحزن سوف يقضي عليه، أو سيقوده إلى الجنون، أخبريني يا رافينا متى تفصين له بوجود جنين في أحشائك؟

نظرت رافينا إليها. وودت أن تنكر ما حدثه لانونا ولكنها اصطدمت بالأمنية الدفينة التي تتراقص في عينيها، فوجدت أنه من حماقة الإنكار، فقد رأت لانونا الكثير من هذه الدنيا، وتشعر بما يتمناه مارك.

تركزت الدموع فجأة في عيني رافينا وقالت:

وماذا يهم في الأمر؟ كنت محقة منذ البداية يا لانونا. قلت إن الإنسان لا بد أن يتزوج من هريته وأنا راحلة.
قالت لانونا مصدومة:

لا تستطيعين، هناك طفل... ربما يكون ابنا لماركوس.

لا يهمني... انني ما جئت إلى هنا لأقدم لمارك ما يريد مني دون أي اعتبار لمشاعري. إن أحاسيسي لم تعد تعنيني، فهو واقع في غرام فتاة أخرى.

اقتربت لانونا من رافينا ولمست دموعها التي اندحرت على وجنتيها، وكأنها اعتادت أن تؤمن بما تشعر به.
قالت:

ما هذا الذي تقولينه؟ كيف تكون فتاة أخرى؟ ماركوس تزوجك.

أطلقت رافينا ضحكة مريرة وقالت:

ولكنه يأسف الآن على هذا الزواج. زواجنا انتهى يا لانونا، وأنا راحلة.

قالت الجدة:

هنا بيتك، كل أطفال دي كورزيو ولدوا في منزل السرد، وهنا سيولد طفلك.

قالت رافينا:

سيولد طفلي في رافنهول.

ووقفت على قدميها، واستطردت تقول:

ألا تعلمين أن مارك يمضي هذه الليلة بصحبة امرأة أخرى؟ انها من بنات الجزيرة. لها شعر أسود مثل دوناتا، ربما يجد لديها كل ما فقده.
إنه طفله... كوني عاقلة.

كنت عاقلة أكثر من أي إنسان آخر، ولكنني لا أستطيع أن اتحكم بالتعقل تجاه علاقة مارك بالفتاة.
وبدت لانونا فجأة امرأة عجوزا طاعنة في السن بالغة الاعياء وقالت:

لا توجد أية علاقة على الإطلاق. زوجك يا طفلي ذهب للبحث عن ماركو كريستي. وهذا معناه الذهاب إلى الجبل حيث يختفي قطاع الطرق. لم يرغب مارك في أن تعرفي بالأمر، وإنما أقضى به الي، وطلب مني أن أحتفظ بالسر. انهم رجال خارجون عن القانون، وقد توسلت له الفتاة أن يبحث لها عن فتاتها، وقال إنه سيسرك إذا استطاع أن يقنع ابن فيرتبويلا بالعودة إلى أمه، ويسلك حياة شريفة.
شيئا... فشيئا... أخذت الكلمات تخترق قلب رافينا وسألت:

لماذا لم تخبرني؟ لماذا احتفظ بهذا السر؟

قالت الجدة:

ربما ظن أنك ستقلقين عليه، أو ربما خشي ألا تسمح لي بالذهاب.

وأخذت يدها تهتز، وأومات لرافينا قائلة:

ألا تسكين لي كأسا من الشراب يا طفلي؟ أشعر أنني في حاجة إليه. ومن طلبة وجهك أرى أنه من المستحسن أن تشاركيني باحتساء كأس! سوف يساعدك على النوم.

وبعد مضي يومين سمعت طرقة على باب غرفة نومها، فتحت وراة رينزيو أمامها يحمل في يده رسالة لها وصلت لتوها، وشاهدت طوابع انكليزية على ركن الظرف وبدا عليه خط رودري برينين في غير اتساق.

سألها رينزيو وعلى وجهه علامات قلق واضح:

هل تريد سيدتي فنجانا من القهوة؟

أجل أحضره لي في غرفة الجلوس، سأقرأ الرسالة هناك.

وقفت في غرفة الجلوس فترة طويلة تحاول فض الرسالة، ولكن أصابعها لم تطاوعها على فتحها، وكانت تخشى أن تحمل في طياتها أنباء سيئة، ولكنها تحاملت أخيرا على نفسها، وفتحت الرسالة بأصابع باردة، متوترة.

كتب رودري لها يخبرها بعودته الى استراليا، وأقنع أباه بالذهاب معه، وأنهما سيستقلان باخرة، وأخبره الطبيب بأن الرحلة البحرية سوف تفيد جاردى وحيت أن رافينا تزوجت واستقر بها المقام في سردينيا فلا يوجد أي مبرر يدعو للإبقاء على رافينول، فأعلنوا عن بيعه.

جلست رافينا على مقعد لأنها شعرت بوهن يسري في أوصالها. انها لا تصدق أن جاردى يبيع رافينول، وسوف يذهب مع رودري الى نيوزوث ويلز أنه مكان بعيد يصعب عليها بلوغه، وشعرت أن أقرب الناس هجروها!

وتذكرت طفلها! قالت منذ ليال قليلة مضت أنه سيولد في رافينول، لكن البيت الذي أمضت فيه طفولتها سيصبح ملكا لانسان غريب عنها. وأحست برغبة في البكاء، فلم يعد هناك أي شيء يمكن أن تتعلق به، لا جاردى ولا بيت ولا واحد يمكن أن تركز اليه. وعندئذ سمعت وقع أقدام تقترب منها وتقول:

"إن فنجانا من القهوة أفضل من لا شيء." وتطلعت ببصرها لتأخذ الفنجان، فوجدت انسانا طويلا يقف بالباب وقد بدا عليه الاجهاد، وفي نظراته علامات الفضول، فصرخت قائلة:

"مارك!"

فقال مبتسما:

"ظننت أنك رحلت."

قالت:

"لأنونا أخبرتني بسبب ذهابك الى الجبال لتقابل قطاع الطرق."

عقد ما بين حاجبيه، وكسا التراب حذاءه، ورأت مزقا في قميصه. قال:

"لا تقولي بأنك كنت قلقة علي؟"

سألته وهي تمزق رسالة رودري قطعا صغيرة:

"هل وجدت ابن فيرتيويلا؟ هل تحدثت معه؟"

"أجل. كان في حاجة الى من يقول له 'انك فتى أحمر' وان امه وفئاته في انتظار عودته الى البيت ليمنحاه حبهما هذا الحب شيء لا يستطيع أن يطلبه أو يستدينه أو يسرقه. انتي أحسده."

ورفعت رافينا عينيها عن الرسالة الممزقة، وتطلعت الى مارك وقالت:

"الا من القناة التي تحبه؟"

"أجل. بالرغم من الأذى الذي أصابها منه، فانها تحبه."

"أنت تمزقين هذه الرسالة يا رافينا."

نظرت الى قطع الرسالة في دهشة وقالت:

"انها رسالة من رودري."

انتصب مارك واقفا وقال:

"رودري؟ وتمزقين رسالته؟ لماذا؟"

"أنا. أنا لم ألحظ أبدا. إنه سيذهب الى استراليا مرة

ثانية، وبصحبه جاردى. لقد باعوا رافينول."

"أذن لن يكون أمامك أي مكان تهربين اليه؟"

"أوه. مارك."

ووضعت وجهها بين يديها، لأنه لا يشعر بما تشعر وتمنت

ولكن تمنيت ماذا؟ وسرت رعشة في أوصالها عندما خطا

نحوها ولمست يدها كتفها. سألها:

"هل تريدان الذهاب الى استراليا؟"

شعرت بقربه الى جوارها، وأدركت تماما ماذا تريد.

هزت أنفاسه شعرها وقال:

"رافينا. هل تريدان أن أحررك مني؟"

تطلعت اليه وأدركت أنها لن تتضرر منه، ولن تهرب من

الحب اذا نبض القلب به. وفي هذه اللحظة شعرت انها لا

تستطيع أن تختار حريتها، كما أنها لم تعد تقوى على العيش

معه بدون حبه.

سألته:

"هل ستدعني أرحل؟"

"لن أدفعك إلى البقاء. هذا إذا لم تكوني راضية في ذلك...
ولأول مرة رفع مارك يده ليغطي وجنته المشوهة، وقد
بدت سحب الألم في عينيه. واستطرد يقول:

"كيف لي أن أسألك أن تحبينني كيف لي أن أطمع في قدرتك
على الاحتمال؟ انني لا أملك حديقة ورود أقدمها لك. وكل ما
أملكه منزل اشباح وذكريات..."

واستعد ليغادر الغرفة عندما استوعبت فجأة كل ما قاله
لها، فقفزت واقفة على قدميها، وصرخت تنادي اسمه:
"مارك... حبيبي!"

فوقف ساكنا تماما، رأسه شامخ بالكبرياء، ولم يستطع أن
يلتفت ليتطلع إليها، فأسرعت وشخصت ببصرها إليه، وقالت
برقة:

"انني لا أكره قبلاتك أو ندوبك...
واشرايت بجسمها، وجذبت رأسه إليها، وكانت شفاتها
ناعمتين، وهي تضع قبلة على وجنتيه التي تكسوها الندوب.
وأردفت تقول:

"إن الحب أعمق من الندوب الغائرة يا مارك!"
سألها والشك في نظراته:

"كم يطول هذا الحب؟"
أشارت بأصبعها إلى المزق في قميصه وقالت:
"لا أعلم وانجا كنت أشعر بأنني أحبك دائما..."
"كنت تكنين الكراهية لي..."

أمسك بيدها، وشعرت بنبض قلبه، وأردف يقول:
"أنت تزوجتني، وأنت تعرفين بأنني لن أقوى على الحاق
الأذى بصديقك الغالي رودري. إنك توجهت لمقابلته يوم
زواجنا..."

قاطعته... قائلة:

"جاردني كان مريضا... وكنت خائفة من نتيجة ما سيحدث
لو أن رودري أقضى له بحادث السيارة...
كان رودري يريد أن يعترف لأبيه... واستغرق الأمر مني
فترة لكي يعذل عن إصراره على الإقرار بجريحتة..."

"كان اعترافه سيحرك من أي التزام تحوي... ألم تراودك
الرغبة في أن تكوني حرة؟"

جذبها وهو يتحدث إليها، فوضعت ذراعيها حول عنقه،
ونظرت إلى عينيه، وفي خجل ضغطت وجهها على صدره،
وقالت:

"لم أكن أعرف حقا ماذا أريد حينئذ، ولكنني الآن أعرف ماذا
أريد. انني أريد أن أسعدك يا مارك سعادة تفوق ما قدمته
لك دوناتا..."

التفت يداه حول وسطها، فندت زفرة من فمه وقال:
"تزوجت دوناتا لأرضي أسرتي، ولكنني تزوجتك لأرضي
نفسي. كنت على استعداد لأن أبيع من الوجود أي إنسان
يعترض طريقي. كنت أطلبك بدفع الثمن وفاء للطريقة التي
فقدت بها ابني دريستي، أما الآن فلا أكاد أتصور أنك
تقدمين لي حبك..."

وقفت راغينا على أطراف أصابع قدميها وهمست في
أذنه بسر معين، ومضى وقت طويل قبل أن يعود كل واحد
منهما إلى الحديث.

وسرعان ما غابت الظلال من منزل السرو، وترددت ضحكات
طفل في أرجائه، وراحت راغينا ترقب بحب زوجها وهو
يرفع الصبي إلى كتفه وينظر إليها بعينين تتألقان حبا.
ولسان حالهما يردد "المكتوب... هو المكتوب!"

www.liilas.com/v63
Sarah